عدسات فى الضباب

إبراهيم باسم



مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

عدسات فى الضباب

إبراهيم باسم

رقم الإيداع : ٥١٧٥ /٢٠١٤
الترقيم الدولى :978-977-3131-525-6

الطبعة الأولى ٢٠١٤

قطعة رقم ٧٣٩٩ ش٢٨ من ش ٩ - المقطم - القاهرة
ت، ف : ٠٠٢-٠٢-٢٥٠٧٥٩١٧

www.mahrousaeg.com
e.mail : info@mahrousaeg.com
e.mail : mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة : فريد زهران
مستشار النشر : إبراهيم جاد
الغلاف: رشا عبدالله
الطبعة الأولى ٢٠١٤

عدسات فى الضباب

إبراهيم باسم

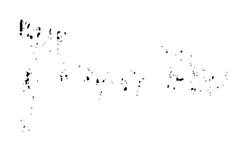
بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عدسات فى الضباب : رواية / باسم إبراهيم.ط١.
القاهرة : مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، ٢٠١٤.
ص ١٤٣؛ ١٤ × ٢٠سم؛
تدمك : ٦ ٥٢٥ ٣١٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١-التشاؤم
أ- العنوان

١٤٩,٦
رقم الإيداع : ٥١٧٥ / ٢٠١٤

إهداء

إلى كل من عرَّفنى على الكتب وسط ضوضاء التكنولوجيا..
إلى العالقون في فراغ خال من كل شئ ..
إلى الصامت، المجهول، الذي لا يشعر به أحد .. إلا في غيابه
إلى رفاق الزوبعة، المقربون إلى قلبي .. البعداء عن جسدي ..
الذين سيقودون العالم يوماً ما
إلى عقل ميلان كونديرا .. وروح السيد درويش





المحتويات

توطئة

الإنسان ..

لا شك أن الإنسان من أعجب الكائنات على وجه الأرض، فالإنسان لا يكف عن إذهالي بأعماله مع كرور الوقت، وكلمة «إذهالي» هنا بالتأكيد لا تقتصر على الإذهال الإيجابي فقط. فإذا استعنا بالمنظور المقارن ووضعنا الإنسان بجانب زملائه من الكائنات المختلفة التي تواجدت على كوكبنا - وبالتأكيد عددها لا يحصى - سيزداد الأمر تعقيداً، ربما لأن من منظور البعض أن الإنسان تحرر من غرائزه الأولية، أو ربما لأن الغرائز الأولية التي تحكم جميع الكائنات تتطورت وتحولت، لتأخذ شكل يُعرّفه البعض بالشكل المتحضر لهذه الغرائز، الشكل الذي عرفه الانسان لا البيئة. بدلاً من أن يكون هدف الإنسان الرئيسي في الحياة هو إيجاد الطعام الكافي الذي سيبقيه على قيد الحياة، استطاعت السلالة البشرية أن تثور على المسار المفروض عليها من الكون، وتعيد صياغة نواميس الحياة، فتوصلّت إلى أساليب فعالة لجمع الطعام وتخزينه، إلى أن أصبحت عملية بسيطة لا تقلق معظم الناس. كان هذا التحول هو أول خطوة لتقدم الإنسان عن

صف الكائنات الأخرى، وربما هي الخطوة الأهم على الإطلاق في تاريخ البشرية لأن هذا التطور أطلق فجوة في حياة الإنسان نفسها، كما أطلق فجوة بينه وبين الكائنات الأخرى، فإن أصبحت عملية إيجاد الطعام عملية شبه مضمونة - إذا استثنينا أوقات الجفاف والمجاعة والقحط إلخ.. - نجد أن الإنسان أصبح يعيش في حالة من الفراغ، ولكنه فراغ مؤقت نشطت فيه خلايا الفكر، وجاءنا منه خيرات الأدب والفن والعلوم والسياسة بكافة أنواعها، فتقدمنا خطوة أخرى عن سائر الكائنات، لذلك أمست تعاملاتنا لا تقتصر فقط على إشباع الغرائز الأولية، بل تتضمن مجال أوسع وأعمق، ومع كرور الوقت تتعمق، وتتعقد تعاملات الناس ببعضها ويتطور الفكر والمنظور العام.

إذاً التساؤل الأهم في هذه العملية: هل تطور الإنسان إلى الاحسن أم الاسوء؟ أو بمعنى أصح وربما أوضحً ما هي القاعدة التي تحكم الطبيعة الإنسانية في هيئتها الحديثة؟..

لا شك أننا لا نستطيع أن نلوم الإنسان على أخذ خطوات التقدم التي وصلت بنا إلى حاضرنا، وإذا لمنا التطور كما فعلت بعض المجموعات ومنهم الكويكرز (Quakers) في الأغلب، لن نستطيع إعادة عقارب الساعة، لكن ما في وسعنا حالياً هو أن نقيّم ماضينا وحاضرنا ربما نتعظ في مستقبلنا.

أعتقد أن أكثر كيان يستطيع أن يحكم على طبيعة البشر في يومنا هذا، هو الكيان الذي شاهد تطور البشر على مر العصور، وشعر بنتائج هذا التطور، لذلك وأنا جالس على أريكتي مرتدياً سروالي القطني الأبيض وقميصي الحاملات الداخلي، سأحاول أن أتقمص دور الكائنات الأخري المتكونة من كل شئ يعيش ويتعايش على كوكب الأرض، وأقيم الوضع الإنساني من منظورهم، إلى أن يأتينا كائن نستطيع التواصل معه، فمنظور الكائنات الأخرى مرتبط بالوضع البيئي الذي يمَكّنهم من تلبية غرائزهم

الأولية وإشباعها، ولا شك أن النشاط الإنساني كان له أثر سلبي في القرون الأخيرة أدى إلى: إنقراض كائنات، وتدمير بيئات، وبالتالي لا أعتقد أن انطباعهم الأولى عنه يسر، ولكن في المقابل هناك اجتهادات واضحة من البعض لحفظ كائنات مختلفة، وحماية البيئة، لتستطيع أن تعيش، وتلبي احتياجاتها.

من منظور الإنسان لأخيه الإنسان أو أخته الانسانة تعددت الأفكار أيضاً، كما هي العادة في قضية الطبيعة الإنسانية، فظهر المنظور الهوبزي[1] الشهير الذي رأى أن الإنسان من أبشع الكائنات التي تواجدت على الأرض، وقد يكون وحشيا إلى درجة مقززة ومريضة. وللأسف إذا نظرنا إلى التاريخ سنجده ممتلئاً بأبشع الجرائم الإنسانية التي يمكن أن نتخيلها، فالتسعينات وحدها حملت لنا مشاهد مروعة من مجازر تفتيت يوغوسلافيا، إلى مذابح الحرب الاهلية الرواندية، وإذاً فالمنظور الهوبزي منظور مرعب، لكنه قد يكون واقعياً ولا يمكن إقصاؤه، وفي الوقت نفسه إن عممنا هذا المنظور، وقررنا أن السلالة البشرية سلالة من الوحوش، قد نظلم الكثير منا.

وإن أردنا أن نبتعد عن المنظور المتشائم من الطبيعة الإنسانية، فهناك أيضاً الكثير من الأمثلة التي تؤكد على ذلك، وأوضح هذه الأمثلة تتواجد في كتابات الفيلسوف بيير جوزيف برودون[2] . يري برودون: أن أي شخص عنده القابلية أن يكون شخصاً عادلاً وصالحاً، لكن مجتمعنا الفاسد يدفعنا إلى الأنانية وربما العنف.

وأما الجانب المشرق في كلام برودون هو إن العدل غالباً ما ينتصر في شخصيتنا، والانانية تختفي تماماً، وبالتأكيد لم أواجه صعوبة في ايجاد أمثلة واقعية لدعم هذه الرؤيا، فهناك الكثير من البشر الذين وهبوا

---

١ توماس هوبز، فيلسوف انجليزي (١٥٨٨-١٦٧٩)

٢ فيلسوف فرنسي (١٨٠٩-١٨٦٥)

أنفسهم لخدمة البشرية بطرق مختلفة، من بناء مستشفيات ومدارس إلى علاج الناس بدون أجر...الخ، لكن في الوقت نفسه أنّ نعتقد أن هتلر أو موسوليني أو أي شخص أهدر أرواح الناس ورخصّ ممن دماءهم يوجد بداخله ذرة من الخير، هو بالتأكيد استنتاج عبثي.

إذاً السؤال الحقيقي الذي يدور في خلدي، ويمزق ما تبقى من عقلي، هو: هل الانسان بعد أن تتطور ووصل إلى واقعه الحاضر، بالفعل طماع، انتهازي، أناني، وفي بعض الأحيان فوضوي كما يعتقد البعض؟ أم يميل أكثر إلى الخير، ويفضل المصلحة الجماعية ويهتم بالمجتمع، وفي الوقت نفسه يقدر الأرواح ويعطيها قيمتها الحقيقية؟.

البعض قد يتشاءم، ربما من باب الاستسهال، فهم يفكرون بمبدأ: البشرية خيبت آمال الكثير على مر العصور، ما الجدوى إذاً من التفاؤل الزائف؟ أما المتفائلون فيرون أن الخير متواجد وفي كل مكان، لكن على الشخص أن يحسن الظن ويبتعد عن عقول المتشائمين، فيتم نعتهم في النهاية بالمثالية والتحليق في عالم الخيال، وقد يكون الشقين على حق، والحياة ما هي إلا أمواج متتالية من الخير والشر...

كل هذه الافكار ازدحمت فجأة في عقلي، وبلا ترتيب واضح، مثل أي شارع رئيسي في قلب مدينة القاهرة وسط النهار، عندما وضعوا أمامي جثة شهيد مختمل، لم يكن مثل بقية الحالات التي رأيتها في عمري المهني القصير، والاختلاف كان واضحاً في إصراره العجيب على البقاء، كان جسده يتشبث بروحه بعزم ما فيه، مثل ماكينة الخياطة التي فرغت من الخيط، لكن لازالت تدق إبرتها الفارغة على القماش، كأنه لم ينتهي بعد من عمله في عالمنا، كأنه لا يخاف الموت، لكنه لن يقبل أن يترك لنا عمل غير مكتمل.

عبد الرحمن وإم

تجربة التعليم تجربة عجيبة ومفيدة، لكنها في الوقت ذاته بائسة وقاسية، لكل من جاءتهم الفرصة أن يرتادوا المدارس، ويتعلمون بالمفهوم الرسمي، فمن الناحية التعليمية الطفل يذهب إلى المدرسة وهو مغلوب على أمره ليجلس على كرسي لمدة ثماني ساعات، ويستمع إلى شخص، وهو يحاول أن يحشي عقله بمعلومات متناثرة بغض النظر عن إرادته. لا نستطيع أن ننكر أن الطفل يخرج في نهاية اليوم ببعض المعلومات التي لم تتبخر من مخه بعد (مثل: السودان تنتج ٨٠٪ من الصمغ)، بالإضافة إلى تعلم الطفل القراءة والكتابة. فرغم الغباء، وضحالة الفكر والإبداع الذي ينظم منظومتنا التعليمية، لا شك أن هناك فوائد ضئيلة يكتسبها الطفل بشكل أو آخر، وإذا تم مقارنته بشخص لم يذهب إلى المدرسة سيظهر الفارق، فلابد من الإشادة بالمكتسبات التي يخرج بها الطفل بعد هذه المعاناة، لكن الأهم في التجربة التعليمية هو البعد الاجتماعي، بأن يجبر الشخص على ارتداء نفس الملابس ويذهب إلى نفس المكان، ليلتقي بنفس الناس، ويجلس في نفس الفصول، ويستمع لكلام لا يختلف محتواه كثيراً، هو بالتأكيد تحد سافر لعقلية الإنسان. في هذه البيئة البائسة

نتوقع من الناس أن تتكون شخصياتها بشكل سليم، وأن يصبحوا كائنات إبداعية منتجة ليطوروا المجتمع ويتقدموا به.

لم تختلف المدرسة المصرية الخاصة بالمنيل عن معظم المدارس، ومثل معظم الطلاب استسلم عبد الرحمن لهذه الإجواء البائسة، فامتنع عن أي محاولة للتفكير خارج الإطار الدراسي، وخنق نفسه داخل النظام التعليمي ليصبح مثل معظم الطلاب الذين لا يهتمون بشئ إلا المجموع. والجميع يعلم أن درجات إختبار نهاية العام ثقافياً وتعليمياً لا تساوي شيئاً ولا تمثل مقياس لشئ أكثر من قدرة الشخص على حفظ المعلومات التي كتمها بعقله، وإعادة إنتاجها، لكن في نهاية الأمر الدرجات هي التي تتيح للشخص أن يدخل الجامعة التي يريدها وتوقف الضغوط العائلية المتخلفة، وبالتالي تعامل عبد الرحمن مع الأمر على أنها «مرحلة وستنتهي».

لكن في ظل قتامة المدرسة كان هناك دافع رئيسي يجعله يذهب إلى المدرسة بشكل يومي، رغم أنه غير ملزم على الحضور، لأنه يأخد دروس مع مدرسين أكثر كفاءة خارج المدرسة. كان التقائه بالأصدقاء ولعب الكرة هو أهم شئ له في هذه المرحلة العمرية، كان هذا هو الشئ الوحيد الذي يرخي الضغط العصبي اللامتناهي الناتج عن المذاكرة، وكعادة معظم المدارس الكبيرة تتشكل شلل أصدقاء كثيرة، ولا يتعارف ناس من شلل مختلفة إلا نادراً، أراد عبد الرحمن أن يكسر هذه العادة عندما رأي إم.

لم تكن إم من شلة في المدرسة، كانت مستقلة بذاتها، تمثل نفسها ولا تترك أحد يمثلها، كانت قد جاءت إلى المدرسة منذ سنتين فقط، وكانت بالشعبة الادبية، وبالتالي لم يرها عبد الرحمن إلا في أوقات نادرة وهو يلعب في حوش المدرسة. ربما رؤيتها كان الأمر الوحيد المتجدد في هذه المنظومة المملة، شعر عبد الرحمن أنها تأتي كل يوم في هيئة مختلفة، تكشف عن شئ جديد في شخصيتها، أو ربما كانت طاقتها المتجددة التي

تشع النور من وجهها هي التي أعطته، لا يستطيع التحديد بالضبط وسط فوج المشاعر المتدفق الذى يأتي معها ليجعل قلبه يخفق. غيّر عبد الرحمن فريقه ليترك فريق الباندا ويلعب مع فريق كوزموس لمجرد أن يواجه المرمى الذي تجلس خلفه، فيستطيع أن يختلس نظرات قليلة، دون أن يلفت انتباها وهو يلعب، وأحياناً كان يركل الكرة في اتجاهها ليقترب منها، ويسمع صوتها، وهي تقول: « ولا يهمك» بعد أن يعتذر، ولم يمل عبد الرحمن أبداً من القيام بهذه المناوشات ليقترب منها، أو يختلس نظرة أو همسة من هذا الكائن الملائكي.

«إتجوز البنت اللي متزهقش منها»

لا يتذكر عبد الرحمن من تفوه بهذه العبارة، لكن ظلت تطارده كلما ظهرت إم أمامه في صورتها المتجددة دائماً وسط حوش المدرسة المستقر في مِلله، وظل عبد الرحمن يطرد هذه العبارة من خلده، إذاً قرر أن يتبنى هذه العبارة، فأول خطوة ستكون أن يتعرف عليها، لكن ماذا سيقول لها وهو واقف يتصبب عرقاً أمامها بعد مبارة كرة قدم، وهي واقفة في جمالها السرمدي؟.. فكر أن يكلم أحد أصدقائه في هذا الموضوع، لكن عندما تخيل رد فعله تنحى عن هذه الخواطر، فعندما يذهب لأحد الأصدقاء في البداية سيسخر منه مثل أي طالب ثانوية عامة يتكلم مع زميله عن الحب، لكن إذا تجاوزوا هذا الأمر ثم أفصح عبد الرحمن عن البنت سيندهش صديقه، ثم يعود إلى نبرة السخرية. كانت إم تعتبر غريبة الأطوار في هذه المدرسة، فهي تجلس وقت الاستراحة في حوش المدرسة وتقرأ، وللتوضيح هي لا تراجع أحد الدروس أو تنهي واجباً مثلما يفعل البعض ... لا! تقرأ إم كتب خارج المنهج!.. يتذكر عبد الرحمن وهو جالس في الحوش مرة قبل بداية المباراة اليومية عندما جاء أحد أصدقائه وهو يضحك بكل ما فيه قائلاً: «البنت القاعدة ورا الجون دي قاعدة بتقرا كتاب اسمه الحب في المنفي .. واضح إن حالها صعب

أوي»، ثم قهقه الجميع ووضعوا إضافات شخصية على النكتة، إذاً عندما يقرر أن يتحدث مع واحدة تقرأ كتاب جديد كل يوم ماذا سيقول لها؟ وهو غارق في جهله الذي علمه أن يذاكر لكي ينجح، ولا يبذل أي مجهود أكثر من ذلك.

«إتجوز البنت اللي متزهقش منها»

لا يعلم عبد الرحمن سبب إصرار هذه العبارة على الالتصاق به، والشئ الذي يثير جنونه أكثر هو فشله في تذكر قائل هذه العبارة، ربما كان خاله، من سيقول هذه العبارة غير خاله الذي لازال في عقده الأربعين ولم يتزوج بعد، وكل كلامه نصائح عن البنات؟ أو ربما يكون محمد إبن الجيران الذي يكبره ببضعة أعوام، ويتلذذ في نشر نصائحه من خبرته في الحياة، أو هكذا يزعم. لا يهم الآن من قال هذه العبارة، لكن إذا تبناها كيف سيشرح للناس أن حبيبته اسمها إم، حقاً إنه اسم عجيب، اسم مكون من حرف واحد باللغة الانجليزية، وبالتأكيد هناك قصة وراءه، ربما تكون قصة مضحكة أو على الاقل مسلية مثلها، لكن إذا اتضح أنه تقرر أن يكون اسمها إم بدون حيثيات، بالتأكيد سيكون أمراً مربكاً. ظلت الهواجس تتلاعب بعقل عبد الرحمن لدرجة سببت له الأرق كما نسمع عن العاشقين في الروايات.

بالنسبة لإم كان الوضع مختلف تماماً، لم تبغ إم الدخول في أي من الدوائر بالمدرسة، أو بمعني أصح: لم يكن لديها وقت لهم، وربما كان هذا سبب نعتها بغريبة الأطوار. كانت إم بالصباح تذهب إلى المدرسة، للاستماع إلى الدروس بجدية وليس لملاقاة الأصدقاء كما كان يفعل الاخرون، وفي أوقات الاستراحة كانت تجلس لقراءة كتاب.

خارج المدرسة كانت إم تتطوع لتعليم الأطفال اللغة الانجليزية، وتقيم تجمعات أسبوعية لمناقشة الكتب، بالإضافة إلى كتاباتها في إحدى الصحف الشبابية، ودرس اللغة العربية الأسبوعي، ولم ترد إم أن تدخل

إلى إحدى دوائر الاصدقاء وإلا اضطرت أن تعطيهم وقت خارج المدرسة لا تمتلكه، وكانت إم تعتبر معظم الشباب تافهين، وكل ما يفكرون فيه النجاح الدراسي، ولم يلفت نظرها أحد فحددت مسافتها من الجميع.

ومرة بعد أخرى استطاع عبد الرحمن أن يلفت نظرها، ليس لسمرة بشرته، أو شئ من هذا القبيل، لكن لشخصيته التي شكلت لغزاً في وجدانها، ففي المدرسة يكون عبد الرحمن صاخباً في الحوش وهو يلعب الكرة، كأنه يحاول جذب أنظار الجالسين، دائماً يحاول أن يقترب إليها، يزداد خبثه وهو يظن أنها لا تلاحظ نظرته الدائمة لها، ولكنها في نفس ذات الوقت، عندما تراه في درس اللغة العربية في مركز التقوية، تختلف شخصيته تماماً، إلى درجة أنها تشك أنه شخص آخر، لا يحاول النظر اليها، ولا تصدر منه همسة، بل يجلس في سكون تام مثل هدوء الرضيع في سريره، ظلت تنتظره أن يأخذ الخطوة ليتعرف عليها، لكن بدي لها أنه خيب ظنها.

أخذ عبد الرحمن الكثير من الوقت ليستجمع شجاعته، ويقنع الهواجس المتضاربة بداخله لمحاولة التعارف على إم، لكن كل مرة يتقدم لبدايات أي حوار يجد رجليه تتسمر في مكانها، وذاكرته تنمحي من الكلام الذي استغرق وقتاً طويلاً ليرتبه، ولسانه ينعقد تماماً، فيتراجع في آخر لحظة، وفي امتحان نهاية العام للغة العربية انتهى عبد الرحمن من الامتحان قبل انتهاء الوقت المحدد، فجلس يقنع نفسه بعد أن راجع على إجاباته، أن يذهب إلى إم بعد الامتحان ليتعرف عليها. وفي الدقائق العشر المتبقية في الامتحان أخذ القرار وتراجع فيه أكثر من ألف مرة، حتى وجد نفسه واقفاً أمامها، والكلام ينفلت من فاه:

- مش انتي معانا في درس العربي بتاع ميس إيمان؟

مع السؤال ظهرت ابتسامة فريدة بنغزتين على وجه إم الجميل وهي تكشف عن أسنان ناصعة البياض لدرجة جعلت عبد الرحمن يفكر أن

والدها بالتأكيد طبيب أسنان، ثم قالت بصوت موسيقي على غرار نجوم الأوبرا:

- أيوة أنا .. عملت إيه في الامتحان؟

ابتسم عبد الرحمن في المقابل وهو يرد بنوع من عدم الاكتراث:

- آه كان سهل .. وانتي؟

- الاسئلة طلعت زي ما قالت ميس إيمان بالظبط .. كان حلو.

وصل الحديث إلى حارة سد وساد الصمت بضعة ثواني، ليتحول إلى صمت محرج، لكن إم كانت سعيدة بكل ثانية تمر، حتى وإن لم يكن هناك شئ يقال، وعبد الرحمن لم يصدق نفسه من اتخاذ هذه الخطوة وشعر بنشوة حقيقية ترفرف في قلبه، لكن مع الصمت ارتبك، ثم وجد نفسه تلقائياً بنسحب وهو يقول:

- أشوفك في التربية القومية بقى...

التربية القومية

مرت الأيام ببطء شديد على عبد الرحمن، مثل قطرات محلول الجلوكوز وهي تسقط واحدة تلو الأخرى في المسلك المتجه للوريد، أصبح الوقت أثقل من مصارع السومو الياباني، ألم يستطع عبد الرحمن التعرف عليها قبل الامتحانات؟ فأيام الامتحانات تُعَرّف بثقلها في طبيعة الحال، قبل أن يكون للطالب غراميات ومعشوقات، فيجلس ويعد الأيام المتبقية على الامتحان القادم لعلها تقل ويتحرر الطالب من قبضة التعليم.

ندم عبد الرحمن من طريقة مغادرته لإم، وجلس يعاتب نفسه على جملة: «أشوفك في التربية القومية بقى»، من يكون في حضرة هذا الملاك وينسحب بإرادته؟ كم من الوقت أخذ لكي يستطيع أن يقف أمامها ويكلمها؟ وفي النهاية يغلق أبواب الحوار في وجهها بهذه الطريقة، يا لك من أبله! كانت حسرة عبد الرحمن تزيد من قسوته على نفسه، وكلما جلس أمام الكتاب ليذاكر تذكرها في الحال، ونسي كل كلام الكتب على الفور.

أخذ يعيد حواره معها في ذهنه كأنه حوار مسجل على شريط وكلما أعاده عاتب نفسه على رد معين أو لفظ، أو حتى نطقه للحروف.

غابت إم وغابت دروس ميس إيمان، ولم يتبق إلا فرصة أخيرة، فرصة امتحان التربية القومية، قبل أن يختفي الجميع لإكمال امتحاناته، والفرار إلى عطلة الصيف، وأدرك عبد الرحمن أن عليه اقتناص الفرصة القادمة بأي شكل من الأشكال، فجلس يرسم سيناريوهات وحوارات في ذهنه، بعد أن كف عن التفكير في الماضي، ووضع خطة في حالة أن انتهى قبلها، وخطة في حالة أن انتهت قبله، حتى أدرج كل الاحتمالات في خططه.

(لم يعرف عبد الرحمن الكثير عن الحب أو الرومانسية، ولم يكن يعلم إذا كان الشعور الذي يراوده منذ أيام هو ما يسمى بالحب، كانت هذه هي أول مرة في عمر عبد الرحمن القصير التي يحاول فيها أن يقترب من بنت.)، جلس يضحك على قدره العجيب، وهو يفكر في الأمر، إذا نجح في اقتناص هذه الفرصة، سيكون أول تعارف له، ونقطة انطلاق العلاقة من اختبار التربية القومية، ياله من عجب! لا يعلم عبد الرحمن بالضبط ما هي مادة التربية القومية، والهدف الحقيقي الذي يجعلهم يحضرون الامتحان غير اقتناء الدرجات. في الاعوام الاخيرة تغير اسمها من تربية قومية إلى تربية وطنية، واحتفوا بالموقف، وكأنهم قادوا تغير جذري في مجال التعليم، بالتأكيد هذه المواد التي لا يفهمها أحد هي أكثر شئ مخيف على الإطلاق.

جاء يوم الامتحان وكأنه لن يأتي أبداً، ولم ينم عبد الرحمن من فرط حماسه، كانت مقابلة إم هي الاختبار الحقيقي، نسي التربية القومية، ونسي كل شئ إلا إم. وصل إلى لجنة الامتحان مبكراً ووقف خارجها لعله يلتقط لحظات مراجعة قليلة معها قبل الامتحان، أو يفتح أي حوار حتى يتحجج به لمقابلتها بعد الامتحان.

(لا يعلم عبد الرحمن بالضبط ما الشئ الذي يدفعه إلى كل هذا، ويخشي أن يفكر في الأسباب فيدرك أنه أحمق، لأنه يركض خلف بنت لا يعرف أكثر من اسمها العجيب، الذي لا يفهمه).

كعادة الوقت دائماً يخذلنا، مر بسرعة البرق قبل أن تظهر إم، وهتفوا المراقبين للتلاميذ أن يدخلوا اللجان، فوجد عبد الرحمن نفسه ينسحب داخل اللجنة من قبَل زملاءه. (الوقت مقياس عجيب، صنعه الإنسان بلا عنصرية ولا إقصاء، لكن دائماً هناك من يشتكي من ثقله، وبخرون يشتكون من خفته)، جلس في مكانه، ومر المراقب ليتأكد من أرقام الجلوس قبل أن يوزع ورقة الأسئلة، لم يصدق عبد الرحمن عينيه كلما التفت ورأى كرسي إم فارغاً، حدق من النافذة المطلة على حوش المدرسة ربما تظهر إم، وهي تعبر الحوش لتصعد السلم، ونسي الامتحان تماماً، والمادة، وغرق في تساؤلاته وتعجباته، وهو يقول لنفسه: بالتأكيد حدثت مصيبة جعلتها تتغيب عن الامتحان، فلن تضع نفسها في هذا الموقف إلا إذا كان هناك شئ يستحق كل هذا، يجب أن أطمئن عليها، لكن من يدلني؟ الامر شبه مستحيل.

فقد عبد الرحمن الأمل، وبدأ يحث نفسه أن يكف عن الأحلام، ويحل الامتحان، لينقذ حياته التعليمية طالما فشل في إنقاذ حياته العاطفية التي لم تبدأ بعد، انهمك عبد الرحمن في الكتابة وغابت إم من عقله تماماً، وهو يحاول أن يجمع شتات المعلومات المتناثرة بداخله، (أتعجب أمام شخصية عبد الرحمن أحياناً، لا شك أنه مختلف، لكن لا أدري كيف يستطيع أن يتشبث بشخص أو ينساه، هكذا في بضعة ثواني بهذه البساطة).

في وسط الامتحان رفع عبد الرحمن رأسه ليلتقط أنفاسه، ويمارس هوايته المفضلة في مشاهدة الناس غارقة في الكتابة خلال الامتحان، فوجد إم جالسة في مقعدها في سكينتها المعتادة، وهي تكتب بتركيز شديد، تعجب من هذه البنت التي تظهر في خفة سيدة على سطح القمر، امتلأ قلبه بفرحة غامرة، وأخذ يحملق في هذا الكائن الملائكي الحاضر في غرفة الامتحان: من أين تأتي؟ وإلى أين تذهب هذه البنت التي تشبه

قطعة ماس نادرة؟ لا يعلم أحد، ولا يستطيع أحد أن يقيد هذه الفراشة الإنسانية بألونها المبهجة.

توقفت إم فجأة عن الكتابة كأنها شعرت بوخز أعين عبد الرحمن المستمر، فالتفتت نحوه بابتسامة تتعجب من شخصية هذا الإنسان العجيب الذي لا يستطيع عقلها أن يفك شفرة نظراته، ثم عادت إلى ورقتها. شهق عبد الرحمن من ابتسامتها شهقة واحدة، وكأنه استيقظ من كابوس، كأن قلبه نسي أن ينبض للحظة، ثم عاد إلى الحياة، شعر مع ابتسامتها بضوء يخترقه ليخرجه من عتمة الحياة.

عاد عبد الرحمن إلى ورقته وروحه تزقزق كالعصفور في الصباح، وكأن إم هي صانعة المعجزات، بدأ القلم يركض كالعداء على ورقة الإجابة، فانفتح سيل من الكلام وترتبت كل الأفكار، وأصبح كل شئ سلس جداً كأن إم تحمل كلمة السر. انتهى عبد الرحمن من الامتحان قبل أن يعلن المراقب عن نهاية الوقت ببضعة دقائق، فجلس يحمس نفسه للحظة الحاسمة بعد الامتحانات، ويعيد في ذهنه الكلمات التي سيفتح بها الحوار، كأنه امتحان آخر أهم وأصعب.

مع إعلان المراقب عن إنهاء المدة، لم يستطع أن يمتلك نفسه، فانتصب واقفاً، لكن المراقب نهره وطلب منه أن يجلس حتى تجمع كل الأوراق، وإعطائه إشارة الانصراف، فجلس في وضع الاستعداد كالفرس الذي ينتظر الإشارة في أي لحظة لينطلق، كان يجد صعوبة شديدة في الجلوس، لكنه جلس خوفاً من أي شئ قد يضر ورقة إجابته. وعند إعلان المراقب نقطة الصفر قفز عبد الرحمن من مكانه، لكن إم كانت جالسة بجوار الباب فخرجت قبله، خرج إلى الممر فلمحها نازلة على السلم، شعر بجسمه يدفعه أن يهتف باسمها، لكنه لم يهتف خشية لفت أنظار الآخرين، وصل إلى الحوش المؤدي إلى بوابة الخروج، لكنها قد اختفت وسط جموع الطلاب، أخذ يبحث عن شعرها الكستنائي الطويل يميناً

ويساراً، لكن بلا جدوى، فأدرك في هذه اللحظة أنها صانعة معجزات بالفعل، تظهر و تختفي وقتما تشاء، كالسراب، لا بل هي ساحرة أكثر من السراب، لكن سحرها مميت، قتل أحلام عبد الرحمن التي كادت أن تكون واقعاً، وفي طرفة عين أصبحت خيالاً، فبدأ الحزن يخيم عليه وهو يخلع رداء الخيال ويستسلم للواقع، فهو لن يراها بعد الآن إلا إذا تدخل قدر المصادفة، فضاعت حياته الغرامية التي لم تبدأ، وتركت جراحها قبل قبلاتها.

طارق

استيقظ طارق في السابعة مساء، من قيلولة امتدت ثلاثة ساعات ونصف، بعد يوم طويل وشاق، وفي أغلب الأحوال كانت قيلولته ستطول عن هذه المدة بساعة أخرى على الأقل، لولا أن أيقظه صوت والدته وهي تتحدث في الهاتف خارج باب غرفته وتقول عبارات جعلته يشك أن الحديث عليه، مثل: «... آه يا عيني، رجع تعبان النهارده ...» و «... الحمد لله خلصنا من المرحلة دي خلاص ...»، إن كانت هذه الواقعة حدثت في أي يوم آخر غير يومنا هذا، كان انتفض طارق من سريره وصرخ في وجه والدته بكل طاقته، ونهرها على الازعاج العجيب الذي تستطيع أن تصنعه في بيتهم الواسع رغم حجمها الضئيل، وكان صراخه سينتهي مع بكائها الحارق، وهي تُتمتم عبارات عن حسرتها لفشلها في تربية ابنها الوحيد، لكن لحسن حظنا، تميز هذا المساء عن نمط الحياة المعتاد في هذا البيت، مع وصول طارق لدرجة الوعي شعر بانتعاش شديد لم يطغ عليه منذ فترة، وأراد أن يحافظ على هذا الشعور النادر، فتغاضى عن أي أصوات صادرة من والدته، وسد أذنيه بحاجز خيالي، كأنه استطاع بخواطره فقط أن يعزل غرفته عن العالم الخارجي من تلوثه الصوتي، رفع

طارق رأسه من على وسادته سنتيمترات كافية ليرى الساعة التي بجوار سريره، فأدرك أنها تجاوزت السابعة بدقيقتين، فقاوم رغبته الملحة في استكمال النوم واعتدل بجسمه ليصبح جالساً على حافة السرير، وكانت أمامه ساعة من الزمن ليستعد للخروج، وفي ليلة مثل هذه الليلة، قد تكون ساعة من الزمن غير كافية.

صباح اليوم انتهى طارق من آخر إمتحان لآخر سنة مدرسية له، وعلى عكس العام السابق يشعر طارق أن أداءه في الامتحان اليوم كان جيداً، فهو اليوم - على الأقل - لم يترك ورقة الإجابة فارغة، فيكفيه مذلة أن يلتحق كل زملائه بالجامعة، وهو لايزال يذهب إلى المدرسة، مما دفعه إلى بذل المجهود الكافي للنجاح هذا العام. كان الجزء الأكبر من مشكلة طارق أنه لا يستطيع أن يجد إجابة للسؤال المتكرر في هذه المرحلة من عمره: وماذا بعد المدرسة؟ أحياناً فكر أن يدخل كلية التجارة في إحدي الجامعات الخاصة، حيث يقال أنها كلية سهلة، لكن هو ليس من عائلة تملك الشركات والمشاريع مثل أصدقائه، وفكرة توظيفه في شركة ليعمل لحساب شخص آخر لا تعجبه.

لا يهم الآن كل هذه التكهنات حول المستقبل، الليلة هي ليلة الاحتفال، إنها ليلة لن تأتيه من جديد، وقف طارق أمام المرآة أكثر من ربع ساعة يحلق ذقته، يصفف شعره، ويغسل أسنانه, بعد أن استحم ملأ الحمام بالبخار، ومع شعوره أن كل شئ أصبح في مكانه، ارتدى قميصه الأسود ولم يزرره إلى عنقه حتى يستطيع أن يكشف عن الشعيرات القليلة التي بدأت تنبت على صدره، مع بنطلون جينز أزرق، وجزمة جلد سوداء، ثم انطلق بقامته الطويلة نحو الباب ليتوجه إلى بيت صديقه، لكن الامر ليس بهذه السهولة، ظهر صوت أمه فجأة:

- ايه؟ لا سلام ولا كلام كده؟.. ساكن في فندق؟

كانت علاقة طارق بوالدته علاقة ودية وحميمة، إلى درجة تدفعنا

أن نعتبرها صداقة أكثر منها علاقة شاب بوالدته. فعندما نستثني فترة ايقاظ طارق من النوم، والمصائب القليلة التي قد يختلقها في حياته، العلاقة بينهم طريفة. أكبر دليل على هذا هو أن يستطيع طارق أن يرد هكذا وهو يهديها قبلة على خدها:

- معلش يا سامية، ماخدتش بالي .. عاملة ايه؟

لا يستطيع طارق أن يتكلم مع والده بهذا الشكل، فهو يهابه منذ طفولته، على عكس والدته لم يقض طارق وقتاً كثيراً من طفولته مع والده، فلطبيعة عمل والده كان قليلاً ما يقضي وقتاً في المنزل، ربما لذلك السبب استمر هناك حاجز من الرسميات في علاقتهم، بالتأكيد التعامل مع ضابط شرطة ليس من أسهل الامور، كان طارق دائماً يشعر أنه مجبور على أن يخاطب والده بكلمة «حضرتك»، ويحافظ على آداب الحديث ولغته الجسدية في إطار معين، وإلا قد يتعرض إلى إحدي ثوراته العارمة، وكانت دائماً كلمة والده هي الكلمة الأخيرة في بيتهم، لا تناقش على الإطلاق! وغالباً ما كان هذا الجفاء في التعامل مع والده سبباً لإفراط الأم في حنانها على إبنها الوحيد و تتقربها إليه، خوفاً من أن تتأثر شخصيته بهذا الوضع، لذلك يستحيل أن يرد الاب كما ردت الأم قائلة:

- والله، يا طارق مبسوطة من ساعة ما شوفت الواد المطرب المصري ده، وهو بيكسب مسابقة الطرب العربي اللي بتيجي على الفضائية .. بجد صوته يجنن...

فارتسم على وجه طارق علامات من الاشمئزاز في محاولة منه أن يظهرلها حجم تفاهتها، ثم رد:

- ربنا يهديكي يا ست ..

لم تبال والدته، فغيرت الموضوع سريعاً قبل أن يهرب منها إلى أصدقائه:

- مقولتليش الامتحان كان أخباره إيه النهارده؟

- كان كويس .. الحمد لله جاوبت على كل الأسئلة.

- طب مبروك مقدماً يا حبيبي .. رايح فين؟
- مفيش، هروح لواحد صاحبي نحتفل عشان المناسبة الحلوة دي ..
بدأ طارق ينظر في هاتفه في عدم اكتراث وهو يوحي بالتملل عندما بدأت أمه في تعليماتها:
- ماشي، بس والنبي تخلي بالك من نفسك، وماتتأخرش لاحسن بسهر طول الليل مستنياك يا إبني .. ولو أبوك رجع قبلك هكلمك تبيت عند حد من صحابك، لأحسن لو عرف إنك بتشرب مش هيحصل كويس ..
كل مرة يبلغ والدته أنه مدعو إلى جلسة من المشروبات الروحية، تنتطلق الاسطوانة المعتادة من التحذيرات والتنبيهات، وكأن العالم سينتهي، حقاً الأمهات عندهن مقدرة عجيبة على تتكرار الكلام، فهن دائماً يرددنه وكأنهن يقلنه لأول مرة، أو كأن ابناءهن يعانون من الزهايمر. لم يرفع طارق رأسه من أمام الهاتف إلا عندما اختفت والدته من جانبه تماماً، وعلى الفور استغل الموقف واتجه إلى الباب.

****

بعد مروره على صديقته دينا بسيارته الألمانية الفخمة، ذهب إلى منطقة القطامية وهو يقود بسرعة جنونية تبعث فيه قشعريرة تجعله يفرز الأدرينالين وهو يرى عقرب السرعة يميل إلى اليمين أكثر وأكثر وأكثر، فهذه السيارة تجعله يشعر أنه أكبر من الحياة، لا يخشي عواقبها، فهناك لذة لا توصف مع شعورك أن هناك مئتين وعشرين حصاناً بالفعل يركضون تحت غطاء المحرك وأن تعبير «قوة الحصان» ليس مجرد مقياس تقني، بل حقيقة واقعية. وعندما كان الهواء يلفح وجهه وأغنيته المفضلة تخترق سماعات السيارة ليستمع الشارع كله معه، كانت دينا غارقة في كرسيها مترددة بين لذة المغامرة وإحتمالية السقوط من على حافة الخطر، لكن في طرفة عين خدعت مخاوفها، وأسلمت روحها في يد طارق وهي تؤكد له أن هذه أنسب طريقة لبداية السهرة بمناسبة نهاية العام الدراسي.

كانت السهرة تتكون من تكتل من الشريحة الشبابية البرجوازية للمجتمع القاهري، حيث تجمع الشباب حول حمام السباحة الصغير الذي يتوسط حديقة أحد القصور الفخمة لأثرى أثرياء الدولة، ووقف الشباب والشابات في حلقات صغيرة وفي أيديهم كوؤس من المشروبات الكحولية المختلفة، وأثاروا نقاشات مثيرة للإشمئزاز، فعلى سبيل المثال الحوار الذي سيطر على حلقة طارق ودينا يتلخص في أن الجميع كان يضحك على طارق، لأن سيارته موديل ٢٠٠٩، وهذا بالتأكيد شئ جنوني لطبقة أكثر شئ تخشاه هو الابتذال في المظهر، فكل واحد منهم يريد أن يشعر أنه فريد في أناقته، وبالتالي تأخر طارق في شراء آخر موديل كان كابوساً لهم. (تحيرني الطبقة البرجوازية في عصرنا هذا، عندما كتب ماركس عن البرجوازيين كانوا مغيبين عن المجتمع و منشغلين بالفن والأدب والثقافة وعالم الخيال، وهم يجنون المال أما الآن فأصبحوا يثرثرون عن رقي قطعة حديد تنقل الناس من مكان إلى آخر).

لم تطل الوقفة حتى ظهر أحد الشباب يناشد الناس بعلو صوته أن يتحركوا، قائلاً: «يلا يا جماعة، على الكلوب قبل ما الناس تسكر!»، فبدأ الشباب يتوجهون إلى السيارات، وانطلقوا إلى مرقصهم المعروف، الذي يملكه والد إحدى صديقاتهم بمنطقة الزمالك - فرح طارق من تحركهم إلى المرقص لينفلت من مزاحهم السخيف، ويبتعد عن محط الأنظار، فمنذ وصوله القطامية لم يستطع أن يتحدث إلى صديقته دينا. لم يكن طارق على علاقة غرامية رسمية بها، لكنه خطط أن يسلك هذا الاتجاه، ولا يوجد مكان أمثل من المرقص لكى يتقدم بعلاقتهما خطوات عديدة في غضون بضعة أغاني.

الشئ الغريب في هذا المشهد أنه لم يكن هناك ذرة من الخجل بين طارق ودينا، رغم إنهما يتقابلان للمرة الثانية فقط، ولكن كان هناك تفاهم كامل، كأنهم يعرفان بعضهما منذ زمن بعيد، وذلك قد يكون

مخيفاً، إذ من أين أتت هذه الدرجة من التفاهم التي يفشل الأزواج في اقتنائها من عند أرفع أخصائيين المشورة الزوجية في يومنا هذا؟ حقاً إنه شئ مؤسف أن يحدث هذا مع شخص مثل طارق، الذي لا يبحث في دينا إلا عن الأغراض السطحية (لم يكن المقصود بتعبير «يبحث في دينا» المعنى الفعلي - السطحي - الجسدي، بل كان تعبيراً مجازياً، لكن عدت لأدرك أن هذا تحديداً ما يخطط إليه طارق). علينا أن ننتبه إلى أن التفاهم الكامل لا يعني الاتفاق الكامل، فدينا على كامل اليقين من أهداف صديقها، وتفهم المعنى الكامن تحت كل خطوة من خطواته، ولعبة من ألاعيبه، لكن، بطريقة ملتوية، نستطيع أن نعتبرها فخر للحركة النسوية، لأنها تخطط لمقاومة الخضوع للمسار الذي يفرضه طارق عليها.

ومع دخولهما المرقص توجها إلى البار مباشرة، وطلب كل منهما زجاجة بيرة، ثم اتجها إلى أهدئ ركن في المرقص، أي: أبعد ركن من السماعات، لكنه لم يكن هادئاً بالطبع، وبعدها تبادلا نظرات وابتسامات وبعض الهمسات، لكنهما لم يتكلما إلا قليلاً، فإن كان هناك هذا التفاهم العقلي المدهش بينهما، فما الداعي للجعجعة فوق صوت الموسيقى الخارق، فالبعض يحمل صمتاً مملاً رغم التفاهم الذي قد يكون بينهم، أي: تفاهم كلامي، لكن التفاهم الصمتي شئ مختلف، الصمت هو مقياس الكلام، كما أن الظلام هو مقياس النور، فدينا استطاعت بابتساماتها أن تجعل الصمت ينطق، مثلما يجعل الكاتب البليغ البياض الذي بين السطور أن يسرد قصة موازية، وفي حقيقة الامر إنه صمت يقول أكثر بكثير من الحديث، إنه صمت ساحر.

أخرجت دينا سيجارة من علبتها دون أن تنظر إلى طارق، ثم أشعلتها ووضعتها في فمه برقة جريئة، وقامت بإشعال أخرى لنفسها، قامت بهذه الحركة برومانسية ثورية، كأنها تعيد تشييد علاقتهما، أو كأنها تخطف من طارق زمام الأمور، وتدمر كل تخيلاته المستقبلية.

لم يستوعب طارق هذه الحركة على الإطلاق لدرجة جعلته يرتبك، ويشعر أنه أضعف منها، وكأنها هي التي تقود العلاقة، بدأت نظراته تتغير وتتفادي عينيها، حتى قرر أن يقبل عمق الواقع، ويعدل عن مخططاته، ويتنحي عن غروره ليقّدر ويقبل مكرهاً الذي تجاوزه، وبدون مقدمات جذبها من يديها إلى ساحة الرقص، ابتسمت ثم أخذت تتمايل بخصرها وهي ترقص وتقترب إليه، وبدأ عقله يتاطير مع مفعول المشروبات، فتماسك بخصرها لينفي أي شبهة توحي بأنه قد سكر، وشعر بحرارة جسدها الدافئ، ورائحة الكحول الصادرة من فمها.

يقال - إن في حالة السكر تنكشف شخصية الإنسان على هيئتها الحقيقية، فبعد أن كان هدف طارق من هذه العلاقة هو هدف جسدي، كل ما وراءه هو أن يتباهى بأفعاله معها أمام أصدقائه السطحيين، وشعر أنه ربما يجذبه عقل وروح هذه الفتاة، فهو لم ير شخصاً يتفهمه بهذه الطريقة من قبل، حتى أنه شك أن دينا ربما تمتلك كتالوج عقله، ولم يطل تفكيره في هذا الأمر كثيراً، وعاد إلى واقعه في محاولة لحفظ ما تبقى من هذه اللحظات الدافئة، ولكن فجأة شعر أن شيئاً يهتز على فخده اليمني، فإرتعش لبرهة من الزمن، ثم أدرك أن هاتفه يرن، فأخرجه من جيبه ليجد أن والده بعث إليه رسالة نصية تبلغه: «بكرة الفطار في نادي الجزيرة الساعة ١٠ ما تتأخرش».

وماذا بعد؟

أكثر شئ يخشاه طارق في حاضره اليومي هو إغضاب والده. قد يتفق البعض أن أبغض شئ على المرء هو إغضاب الوالدين، والبعض قد يوسع هذه الفكرة لدرجة أن يتخذ مبدأ أن إغضاب أي شخص أمر غير محبذ، وبالتأكيد لا يوجد مانع أن يحتفي البعض بهذا المبدأ من باب طيبة القلب وحسن النية (وكلاهما لا يوجد لهما مقياس أو تعريف واضح). لكن أن ينادي البعض باحترام الوالدين لمجرد أنهم يحظون بلقب والد أو والدة، فذلك أمر خطير. ألم يكن موسوليني والداً لأطفال؟ ألم يكن جنرال فرانكو والداً؟ ألم يكن جنرال بينوشيه والداً؟ وهناك الكثير من الأمثلة غير الظاهرة في الصحف، مثل: مغتصبي الأطفال، ومن يضربوا زوجاتهم ... إلخ. فأن تطالب أطفال هؤلاء السفاحين أن يحترموهم، فقط لأنهم أباءهم، فإنك بذلك تبيح أقصى الاعمال وحشية باسم الابوة، وبالتأكيد، عندما نتحدث عن نظرة طفل لوالده، الموضوع أكثر تعقيداً من احترام الشخص حسب أعماله، فلا يمكن أن نتجاهل المشاعر التي تتولد وقد تعمي أو تبصر الطفل على شخصية والده الحقيقية، لكن بغض النظر عن كل هذا، فأن يكون الابن مجبراً على طاعة والده وعدم إغضابه، فقط لأنه يخشى ردة فعله، فبالتأكيد هناك خللٌ ما في عقول الناس.

وبالنسبة لطارق كانت المشكلة الأكبر تتلخص في أن والده عادةً - باستثناء لحظات نادرة ندرة قواعد المرور في شوارع القاهرة - يرتدي شخصية العمل ذات الطابع العسكري في حياته الشخصية والأسرية، فهو معتاد على إعطاء الأوامر الصارمة التي لا تناقش، وفي حالة عدم تنفيذ الأوامر بدقة يوقع أقصى العقوبات، فلم يكن من غير المألوف أن يقرر الوالد حبس طارق في المنزل عدة أيام على سبيل المثال. وقد إستطاع والد طارق إن يخلق الرهبة في نفوس كل من يتعامل معه، وأحياناً كان يحتفي بهذا الواقع الذي كان يحاصره على الدوام، وكان طارق يهتز عندما يظهر اسم والده على شاشة محموله، وكل هذا في غيابه عن محط الأنظار، كأنه إله من آلهة الإغريق يستطيع أن يُحرض الكوارث البيئية أن تبتلعنا في لحظة من لحظات غضبه، فتخيلوا إذاً عندما يكون طارق جالساً في حضوره ... تنقلب الدنيا رأساً على عقب.

لكل هذه الأسباب وأكثر اضطر طارق أن ينهي سهرته على الفور، ليعود إلى المنزل ويأخذ قسطه الكافي من النوم، فعليه أن يكون متيقظاً وفي كامل تركيزه وهو في حضرة والده.

(علينا أن نتوقف قليلاً أمام والد طارق لندرك أنه لكي يصل أي شخص في هذا الزمان وهذا المكان إلى أن يعمل في وزارة الداخلية، عليه أن يكون على أتم الاستعداد أن يلطخ يده بالدماء، والمال الفاسد في خدمة كل من في يده قرار. ومن ثم كانت الناس تهاب هذا الرجل لا لهيبته ونفوذه فقط، ولكن لأعماله الوحشية التي يعلمها الجميع لكن لا يتجرأ أحد على ذكرها، ولم يكن طارق على أدنى علم بواقع عمل والده، كمعظم شباب طبقته المغيبين في ثرائهم، وكان يرى فقط وجهة النفوذ، والهيبة والأهمية الاجتماعية لوالده بدون طرح سؤال واحد عن سببهم).

في اليوم التالي استيقظ طارق في الثامنة صباحاً أي: قبل ساعتين من الموعد المحدد استعداداً لمقابلة والده، ومثل كل مقابلة جال تساؤل

وحيد في خاطره: ما هو موضوع المقابلة؟ لطبع والد طارق الجاف، لم يعتد طارق على تحديد مواعيد إلا إذا كان هناك موضوع محدد سيتم طرحه، فوالده ليس من النوع الذي يقابل ابنه لمجرد «تقضية الوقت» معه، في قاموسه الشخصي تعني هذه العبارة «تضييع الوقت» (وبالتأكيد كل شخص يشكل تعريفات خاصة للكلمات والعبارات التي تكشف عن مغزى كامن داخل الجملة، يختلف عن التعريفات المتعارف عليها، وربما نشكل قواميس خاصة لبعض الناس للكشف عما خلف كلامهم). و بالتالي - مثل كل مقابلة - كان طارق يشعر بمزيج من الفضول والخوف، رغم عدم وجود سبب واضح يدفعه إلى خشية هذه المقابلة، لكنه تعلم أن يتوقع الاسوأ دائماً.

توكل طارق على ربه وذهب إلى النادي قبل الموعد بحوالي نصف ساعة. وقد تعلم طارق منذ زمن بعيد أنه يجب أن يصل إلى أي مكان قبل والده وإلا سيضطر أن يواجه العواقب، وكان والده أسلوب مبتكر لعقابه على التأخير، فإذا تأخر طارق أكثر من دقيقتين يترك والده مظروفاً مع النادل عليه اسم ويطلب منه أن يبلغ طارق أن يتصل به، فعندما يتصل يعطيه عنوان شخص في إحدى المحافظات البعيدة، ويطلب منه أن يذهب ليعطيه المظروف فوراً، وفي معظم الأحيان يبدو لطارق أن المظروف فارغ.

على العموم، لم يتأخر طارق اليوم، فجلس يحدق في مدخل الحديقة التي يمكث في أحضانها حتى ظهر جسد والده الضخم، بملامح وجهه القاسية التي جعلت تجاعيد الإرهاق الخفيفة تبدو أنها علامات لجروح معارك قديمة، وشاربه العسكري، وهو يرتدي نظارة شمس سوداء تزيد من ارتباك طارق، لفشله في تحديد الجانب الذي ينظر اليه والده. تقدم والده في بزته الشرّطية بعد أن رد بعض تحيات الجالسين، ثم أخذ موقعه وقال في صوت رفيع (كان معروفاً عن والد طارق أن رغم كل صفاته

العسكرية الذكورية إلا أن صوته مثل صوت الشاب الذي لم يتم مرحلة البلوغ، وربما يفسر البعض أن إفراطه في الصرامة مجرد محاولة لإخفاء طبقة صوته التي تميل إلى الانثوية):

- إزيك يابني؟ كله كويس؟

رد طارق في خشوع بعيد عن الوصف وكأنه في حضور ذات مقدسة:

- آه الحمد لله كله تمام .. إزاي حضرتك يا بابا؟

استمر والد طارق في أسلوب التعالي الذي لا يفارقه وهو يشير لنفسه:

- كله كويس زي ما انت شايف.

لم يهتم والد طارق بمهاترات بداية الحديث كثيراً ودخل في صلب الموضوع على الفور، مسترداً:

- أخبار امتحاناتك؟ وصلني أخبار إنها مشيت كويس..

رد طارق بابتسامة فخر:

- آه الماث (رياضيات) بس اللى كان صعب شوية بس مقدور عليه بردوا

- المهم تعدي على خير ...

ساد الصمت حوالي ستة ثوان وكلاهما يحملق في وجه الآخر، ثم استكمل والده:

- بما إننا وصلنا للمرحلة دي، فكرت يا طارق عايز تدخل إيه؟

إرتبك طارق من السؤال، لأنه لم يتوقعه الاطلاقاً ولا يحمل إجابة، فهو لا يعلم بعد إذا كان قد نجح أم رسب فى الاختبار والآن عليه أن يحدد كليته؟ تردد طارق للحظات، ثم قال في صوت مهتز:

- والله مش عارف .. الموضوع ده مش عارف أحسمه من فترة.

- طب فكرت في كلية الشرطة؟

- مش أوي، لأ .. عمري ما فكرت إن دي حاجة ممكن توافق عليها بما إن حضرتك دائماً بتشتكي من الشغلانة.

- مفيش حد مش بيشتكي من شغله الايام دي، كلها حاجات بسيطة ..

عموماً إنت خلاص بقيت راجل والقرار قرارك .. بس أنا شايفك فيها يعني .. فكر وقولي

«فكر و قولي»؟!! ظل صدى هذه العبارة يتكرر مرة تلو الاخرى في وجدان طارق، وهو يواجه صعوبات في استيعابها، لم تصدر هذه العبارة من فم والده من قبل قطٍ، فهو دائماً صاحب القرارات، وهو دائماً من يفكر ويقول للآخرين دون أن يطلب آراء أحد او يستشير أحداً، حتى وإن كان القرار متعلقاً بأدق التفاصيل في حياة أحد أفراد عائلته.

أخد طارق يفكر أنه ربما تكون هذه العبارة هي احدي إختبارات والده التي لا تفنى، وبالتأكيد سيكون هذا أصعب اختبار على الاطلاق، ثم عاد طارق ليفكر في اقتراح والده عن كلية الشرطة، هل الشرطة هي بالفعل المنظومة التي يريد أن يهب لها حياته العملية؟ لكن عاد ليفكر بشكل أناني أكثر وهو يردد لنفسه أن اتخاذ هذه الوظيفة بالتأكيد سيحقق حلم أبيه الخفي، وبالتالي مع دخول وزارة الدخلية سيكون له علاقات قوية بما أن والده يعمل في مكتب الوزير، أليس إقتراحاً جيداً و مريحاً إذاً؟ بالإضافة إلى كل هذا مع ارتدائه بذلة الشرطة سيبدأ قي شق طريقه إلى أن يصبح في مكانة والده ووقاره وهيبته، التي يحلم بها الجميع، وربما يكون هذا الخيار هو الأمثل. (لا أعرف اذا كان طارق يري كلية الشرطة كالحل الامثل، لأنه بالفعل مقتنع، أم لمجرد أنه يحاول أن يجتاز اختبار والده، ولكن في الحقيقة لم أكن أتخيل على الإطلاق أن هناك إنساناً يستطيع أن يقنع نفسه بأن يصبح شرطياً في وقتنا هذا، إلا عندما قابلت طارقاً).

عطلة الصيف

لم يؤثر إختفاء إم على عبد الرحمن بشكل صريح، فنساها بعد بضعة أيام وبدأ يعيش حياته وكأنها لم تكن، فانتهى من الاختبارات الباقية، وعاد للعب الكرة مع الأصدقاء والذهاب إلى السينما، ولم يحك لأي شخص عن علاقته العاطفية التي حدثت في خياله، وبالطبع لم يسأل أحد وانتهت القصة بالنسبة إليه، ولكن رغم اختفاء اسم إم من ذاكرته، منذ إختفائها وهو يخشى التصادق والاقتراب من البنات خوفاً من تكرار الموقف، وفوق كل هذا لم تظهر واحدة تخطف روحه بجمالها وتدوخه بعقليتها الغامضة، كان عبد الرحمن يقارن أي بنت بها بلا وعي، فتعطلت علاقته مع الجنس الآخر تماماً.

أما إم فدخلت على عطلة الصيف بصدر رحب، كانت دائماً تنتظر هذا الصيف دوناً عن كل الاصياف، فكانت دائماً تسمع عن روعة العطلة التي تفصل المدرسة عن الجامعة، كانت تسميها عطلة التحرر، لمجرد أنها تقضي عدة أسابيع دون أن تنتمي إلى مؤسسة.

كانت إم تتطلع إلى دخول الجامعة بشوق غير مسبوق، فكرة أنها ستستطيع أن تركز دراستها في مجال واحد جذبتها بشدة، على عكس

معظم الشباب من جيلها كانت إم محددة وجهتها تماماً، ولها خارطة طريق لحياتها المستقبلية، ولم تنوِ تضييع الوقت نهائياً.

كانت إم قد ادخرت معظم مصروفها في الثلاثة أعوام السابقة، وقررت أن تحتفل بهذه النقلة في حياتها، وأن تقضي جزءً من عطلة التحرر في جولة في جنوب أوروبا من اليونان إلى البرتغال، وكانت قد خططت لها بشكل كامل حتى الأيام بحذافيرها، ولم يبق إلا إبلاغ والديها، ولم تكن إم متأكدة من سهولة هذا الأمر، فوالدتها موافقتها مضمونة لأنها حدثتها في الامر، وأدخلتها على خططها، وقالت لها عن كل المواقع الثقافية والتاريخية التي تنوي زيارتها، فتحمست للأمر معها، بالإضافة إلى علمها جيداً أن والدتها نفسها قامت برحلة مماثلة مع تخرجها من المدرسة لكن كانت ظروفها مختلفة. كان جدها لأمها السفير المصري في الهند، وعندما تخرجت والدتها من المدرسة قامت برحلة إلى الهند والصين قبل أن تعود إلى مصر وتدخل الجامعة.

أما بالنسبة لوالدها، فهو بالتأكيد شخص متفتح ومثقف وإلا لم يكن سيحظي بقلب والدتها التي تعتبر من أبرع أساتذة اللسانيات في العالم العربي، ومن كبار المساهمين في المجال أكاديمياً. ومبدأ قبوله فكرة زوجته لتسمية ابنته إم هو أكبر إثبات لذلك، ولكنه - كمعظم الاباء - يقع تحت ضغوط ومخاوف اجتماعية تجعل قلبه يخشى على إم لأنها بنت، ولأنها ابنته الوحيدة (في الواقع استطاع والد إم أن يخفي هذه الأسباب خوفاً من اتهامه بالتناقض بصفته أستاذ جامعي في علم الاجتماع، ومن أشرس التقدميين الذين يكتبون ضد نواميس المجتمع الرجعية في عمود أسبوعي بجريدة مشهورة، لكن بعد بضعة سنوات، عندما تخرجت إم من الكلية كتب مقالة بعنوان «لحظة حساب لابد منها»، يعتذر فيها إذا كان قد تحامل على بعض الاشخاص في مقالاته، مبرراً إن الناس تنسي أحياناً أن المشاعر تطغي على المنطق، وهو كان ضحية هذا الموقف مع ابنته في

يوماً ما). وكانت إم حينئذٍ تخشى رفضه لرحلتها، لأنها ستذهب بمفردها، وبالتالي حصنت نفسها من كل احتماليات رفضه، وفي يوم ذهبت إليه قائلة:

- بابا، عايزاك ثواني ..

كان والدها دائماً يضطرب ويقلق من هذه الافتتاحية لأي حوار، فرد في اهتمام:

- خير يا حبيبتي ..

ارتدت إم الجدية على الفور، وقالت:

- أنا هسافر جنوب أوروبا الشهر الجاي بمناسبة دخولي الجامعة.

التقط والدها الأمر على الفور، وقال وهو يضحك مندهشاً من جرأتها:

- وانتي جاية تحطيني قدام الأمر الواقع، مش كده؟!

ضحكت إم في المقابل وقالت في سخرية:

- لا ما تفهمنيش غلط .. يا بابا.

ثم أكملت في جدية:

- أنا بس كنت خايفة تقلق عشان هسافر لوحدي.

- هتسافري لوحدك؟؟ مقولتليش الموضوع ده..

- خلاص بقى يا بابا .. أنا كبرت يعني .. وبعدين ما تقلقش، كلها بلاد أمان.

حدق والدها فيها وهو يتعجب بينه وبين نفسه على السرعة التي نضجت فيها، ثم قال:

- مبدئياً ماشي .. بس هنبقى نتفق على شوية حاجات كده.

لم تكن آلهة المصادفة على جانب عبد الرحمن في هذا الصيف، فلم يذهب إلى جنوب أوروبا على الإطلاق، ولم يفكر في الأمر حتى، ولم يكن

سبب هذا العجز المالي، بل على العكس إذا كان عبدالرحمن تبني فكرة إم هو الآخر وقام بادخار مصروفه كان سيستطيع أن يسافر إلى المكان الذي يشاؤه، لكنه لا يمتلك ذرة من بعد النظر على الإطلاق، فمنذ ثلاثة أعوام كان الدافع الوحيد للادخار هو أن يشتري محمولاً بكاميرا، لكنه تكاسل عن فعل ذلك.

أخذت العطلة الصيفية لعبدالرحمن مجري مختلفاً تماماً، ففي أحد الأيام إستدعاه والداه لطرح موضوع «مهم» عليه، تخيل عبد الرحمن أن الأمر متعلق بالنتيجة، أو تنسيق الجامعات، أو شئ من هذا القبيل، ولم يخطر بباله أن والده، الدكتور محمد عبدالقوي، سيفتتح الموضوع هكذا:
- يا عبده انت كبرت ولازم نكلمك في موضوع.

إرتعش عبد الرحمن في داخله من هذه الجملة المريبة التي بالتأكيد لن تنتهي على خير، ولولا أن والده كان قد سبق وأعطاه الحديث المحرج و غير الممتع عن «المراهق والجنس» كان قد تخيل أنه سيوجه إليه هذا الخطاب، لكن بما أنه سبق و دار هذا الحديث وردت إلى عبد الرحمن فكرة مرعبة أكثر، الزواج!! فوالداه تزوجا شابين، وربما كانا أسن منه بسنوات قليلة.

بدأت الاسئلة تداهمه على هذا الأساس وارتبك وهو يفكر إنه سيُكون عائلة قبل أن يحظى بتجربة عاطفية واحدة، ولا حتى مع من سيتزوجها، إنه أمر مرعب، ولكن قبل أن يغرق عبد الرحمن في عمق أسئلته، انتشلته والدته وهي تفصح عن الأمر قائلة:
- ده العمل عبادة ياحبيبي، وانت داخل على الجامعة وكلها كام سنة وتبقى بتشتغل..
(لم يكن الخطاب الديني المتسرب بين شقوق الحياة اليومية شئ غريب بالنسبة لعبدالرحمن، فعندما في بيته فيما بعد وتعرفت على عائلته، إكتشفت أنهم المثل الأدق لتعريف العائلة الوسطية المصرية التي تعاني

من صراع داخلي سرمدي بين الفكر المحافظ والانفتاح، فعلى سبيل المثال والد عبد الرحمن له أفكار منغلقة بشدة عندما نتكلم عن حرية زوجته وابنته، أي أن لأنهم نساء فلا يجوز لهم الانطلاق في سراديب الحياة، خوفاً من أن تلتصق بهم صفة أو أخرى قد تخدش حياء العائلة بأكملها، لكن الشئ الملحوظ هو أنه في غياب زوجته وابنته يتلذذ والده بالكلام عن النساء وحلاوتهم، والجنس، فيستمتع بشرح «الصاروخ» (على حد تعبيره) الذي رآه بالامس، فيستفيض في شرح شكل النهدين خلف فستانها، وردفها الذي يهتز مع خطواتها، وكل التفاصيل الدقيقة، أشك أحياناً أنه من أصحاب النزوات والعلاقات الليلية، لكن لا أملك دليلاً على هذا إلا شهوته للتحدث عن الجنس التي لا تنتهي، ربما لا تختلف هذه العائلة كثيراً عن عائلة السيد أحمد عبد الجواد التي وصفها نجيب محفوظ في ثلاثيته).

شعر عبد الرحمن بالارتياح عندما انكشف له مغزي الكلام وتحمس للفكرة، لأنه كان دائماً يتمنى أن يعمل من أجل ماله، ولا يضطر أن يعتمد على والديه، فقال:

- أيوة أنا بفكر في موضوع الشغل ده بقالي فترة ..

فقال والده:

- طب إيه رأيك تيجي تشتغل في الصيدلية معايا..

فرح عبد الرحمن من المبادرة التي قدمها والده وتحمس لفكرة تحوله ليكون جزءً من حياة والده الغامضة خارج البيت، فوافق على الفور وبلا تردد.

وعلى هذا الاساس مضي نصف الصيف وعبد الرحمن يحتك لأول مرة بالعالم الذي يتخطى جدران المدرسة والنادي والمنزل، وهو يتعامل مع الزبائن ويتعلم شيئاً جديداً بشكل يومي. أما في النصف الاخر من الصيف، فقد ذهب عبد الرحمن مع العائلة إلى شاليه العجمي، مثل

كل عام، وهناك التقى بالأصدقاء، واستمتع بوقته ما بين البحر وأكلات السمك الشهية، وهو يحتفل برخاء عطلة الصيف، والشعور الشبابي الجميل بأنه لا يوجد لك هموم، وبالطبع تبخرت إم من ذاكرته الضئيلة، ونسي كل شئ يتعلق بها من درس ميس إيمان، إلى جلستها خلف المرمى في الحوش، لكن لم تحل أي بنت مكانها، ظل هناك مربع فارغ في قلبه لا يستطيع أن يدخله أحد قط.

أول مرة

«يا عبده .. يا عبده .. اصحى يا حبيبي .. يلا يا عبده»

هكذا بدأ عبد الرحمن صباحه ووالدته توقظه لليوم الذي حلم به كثيراً، لم يكن هذا الصباح مماثلاً لأي صباح آخر، كان عبد الرحمن مقبلاً على تجربة «أول مرة» أخرى في عمره، فمعظم الناس تسمح لهم الحياة بعدد محدود من تجربة «أول مرة»، وبالتأكيد هي أثمن تجربة وأهمها لشئ يصبح بعد ذلك مبتذلاً وروتينياً وأحياناً مكروهاً، لكن تظل أول تجربة خالدة ومحفوظة في ذهن الفاعل، مثل عمل فني رائع معلق في منزلك، ولا يعرف قيمته أحد إلا أنت. تجارب «أول مرة» تُكون حياة الشخص في الطفولة، ولكنها مع الزمن تتبخر بدون أن ندرك، فيصبح كل شخص له تجارب «أول مرة» قليلة لم تستنفذ، وكلما أصبح الشئ أكثر ندرة كلما زادت قيمته، وإذا سألت مدخناً عن أول سيجارة ينفث دخانها سيحكي بأدق التفاصيل، ليرسم لك صورة كاملة بسيناريو وحوار، كأن الحدث لم يمر عليه بضعة ساعات، حتى التجارب التي قد تكون مؤلمة نحتفظ «بأول مرة»، فعلى سبيل المثال أول مرة تدخل غرفة الطوارئ بكسر في إحدى العظام أو شئ من هذا القبيل، تبقى ذكراها خالدة إلى الأبد، والعجيب أننا نستعيد هذه الذكرى بشكل مرح وساخر.

أدرك عبد الرحمن قيمة تجربة «الاول مرة» قبل أول يوم جامعة، ولذلك أراد أن تتحول هذه التجربة إلى أفضل ذكرى يستطيع الوصول إليها. استيقظ في الصباح ليجد إفطاراً شهياً ينتظره من والدته، كأنه ملك على وشك أن يخاطب أمته، وجلس يقرأ الجرائد، ليس لأنه مهتم لكن لمجرد أنه أصبح طالباً جامعياً، لا يأتي أتوبيس ليأخذه للمدرسة، ولا يوجد زي معين، ولا أحد سيشتكيه لوالديه بعد الآن، فعليه على الاقل التظاهر بأنه صاحب مسئولية حتى وإن لم تكن حقيقة كاملة، بعد أن انتهى من إفطاره ارتدى قميص وبنطلون جينز، وسحب معطفه الأبيض الذي كان والده يرتديه في الجامعة، وإنطلق ليخطو على خطوات والده.

مع وصوله إلى الجامعة تحول الأمر تماماً، كأنه يخطو في عالم غريب، عالم النضج الذي سمع عنه فقط، وكانت الردهات والأروقة في الجامعة وحدها مخيفة، كم عدد كل هذه المدرجات؟ كم عدد الطلاب الذين يسيرون في هذه الأروقة التي يسير فيها عبد الرحمن؟ إنه أمر لا يستوعبه عقل شخص اعتاد أن يذهب إلى مدرسة تتكون من مبنيين وألف طالب، فصدم عقله فجأة بالواقع الذي كان يعلمه لكن تغاضي عنه، وشعر برهبة شديدة من اصطدامه بهذه الحياة الجديدة.

ارتبك عبد الرحمن عندما أدرك حجم المكان الذي يقف فيه (فعلياً بمعنى حجم الحرم الجامعي، ومجازاً بمعنى أنه شق طريقه إلى التعليم العالي) وبدأ يفكر في الخطوة القادمة وهو متشبث في معطفه الأبيض ليعلن للجميع أنه من كليات العلوم، وبعد أن هدأ قليلاً أخرج جدول محاضراته ليكتشف أن محاضرته الأولي ستبدأ بعد خمس دقائق في أحد المدرجات، فأخذ يسأل يميناً ويساراً، وعندما اكتشف من إجابات الناس أنه في الناحية الخاطئة من الحرم الجامعي، ركض إلى الجهة المقابلة، ثم بدأ يسأل مجدداً حتى قاده أحد المعيدين إلى المدرج الذي يبحث عنه، فشكره ودخل إلى المحاضرة ليقابله صوت عميق بحشرجة توحي انه

مدخن قائلاً:

- إنت يابني!!... رايح فين كده؟!

أخرج عبد الرحمن من جيبه ورقة وقال ببراءة شديدة وهو ينظر فيها:

- مش دي محاضرة البوتني (علم النباتات).

فقال الاستاذ في غضب شديد كأن كلام عبد الرحمن استفزه:

- أيوة هي! المحاضرة بقالها تلت ساعة شغالة .. اتفضل برة حضرتك وتعالى المرة الجاية في معادك

- أصل يا دكتور كنت ...

انفجر الاستاذ في وجهه وقاطعه قائلاً:

- إنت بترد عليا كمان!! إطلع برة!

خرج عبد الرحمن منكس الرأس في خجل شديد ومئات العيون تحدق باندهاش في جرأته التي دفعته أن يرد على الأستاذ. وبدأ يحوم في الجامعة دون اتجاه محدد، وهو يشعر بإحباط شديد من إفساد تجربة «أول مرة» في التعليم العالي وضياع ذكرى محتملة كان قد خطط أن يضعها بجانب ذكرياته الأخري الغالية.

ظل عبد الرحمن يمشي حتى بدأت حرارة وخز عيون الناس في المدرج تزول، فاشترى زجاجة مياه وجلس على رصيف في بقعة غير مألوفة بالجامعة، مثل كل نواحي الحرم، وبدأ خياله يتطاير وهو يتخيل إذا كان قد استجمع شجاعته ورد على الدكتور حتى يجبره أن يقبل بجلوسه في المحاضرة كان سيصبح بطلاً حقيقياً بين جميع الطلاب، وسيحظى بشعبية كبيرة إلى درجة أنه تخيلهم يرفعونه على الأعناق ويحيوه على شجاعته.

- إيه ده هو انت معنا هنا في فلسفة؟

إخترق الصوت الأنثوي مسامعه ليسحبه من الغرق في خياله، فالتفت خلفه ليجد إم واقفة بابتسامة تشع نوراً ملائكياً أشبه بنور اللمبة

النيون التي تضئ غرف المستشفيات، وأخذ فترة وجيزة قبل أن يزيل دهشته ويرد:

- لأ أنا علمي .. قصدي صيدلة.

ضحكت على تخبطه وقالت وهي تجلس بجانبه في رقة:

- نورت نواحينا .. بس ايه اللي جابك الناحية دي يعني؟!

فالتفت إليها وحكى لها في خجل عن تجربته القاسية لأول محاضرة، وإحباطه الشديد منها، فقامت إم بمواساته قائلة:

- ما تشغلش بالك أوي كده، ده أول يوم، وكل الناس لسه تايهة.
- ما أنا عارف، بس ماتخيلتش إن الموضوع هيبقى محرج كده.

ساد الصمت بعد هذه الجملة وظل كل منهما يحدق في الفراغ و هما يستمتعان بجلستهما، لكن خاف عبد الرحمن أن تقوم إم وتتركه، ففكر أن يستغل الفرصة ليوطد العلاقة و ايحاول أن يحافظ على السعادة الغامرة التي تبعثها في قلبه كلما رآها، وقد كان جلوسه مع إم حلماً يتحول إلى واقع، فمع اختفائها بعد إمتحان التربية القومية لم يتخيل قطً أن سيأتي اليوم الذي سيجمعهما مرة أخرى، لذلك أراد أن يحافظ عليها هذه المرة، فلم يكرر حماقة اللقاء السابق وقال:

- أنا سمعت إن اسمك إم .. ايه الحكاية دي صحيح؟

ضحكت إم ضحكة مفعمة رغم تمللها من السؤال الذي تكرر على مر السنوات (منذ أن عرفت إم كان دائماً إسمها يشكل لغزاً بالنسبة إلى، وكنت أخشى أن أسألها عن القصة الخفية لاسمه،ا لأني رأيتها ترفض أن تشرح للناس بحجة الكسل، لكن بالتأكيد كان هناك دافع خفي أزاح الملل مثل من يزيح الغبار من على قميصه) ثم سألت عبد الرحمن دون أن تنتظر جوابه:

- دي حكاية طويلة متأكد إنك عايز تعرفها؟ ..

ثم مشطت شعرها بيديها لتزيحه من على جبهتها وإعتدلت في

جلستها، وأخذت تسرد أنه عندما كانت لا تزال مجرد جنين في أحشاء والدتها كان هناك نقاش مستمر في العائلة عن الاسم الذي سيمنحوه لمولودهم الجديد، ولم يكن جنس الجنين معروفاً بعد، لكن أراد كل أفراد العائلة أن يساهموا في الاسم، فاقترح الجد إسماً، و الخال اقترح إسماً، حتى ابن عم والدها اقترح إسماً. لكن ظل والداها صامتين حتى اكتشفوا إنهم سينجبان بنتاً، وعندما إكتشفوا هذا الامر لم يقولا لأحد، بل إحتفظا بسرهما، وكان هناك حيرة كبيرة لديهما بخصوص اسم مولودتهما، وشعروا بثقل مسئولية هذه الخطوة، فكلنا نعرف أناساً تكره الأسماء التي سموا بها، وكلنا نعرف أناسً يحملون أسماء غير ملائمة لشخصياتهم على الاطلاق، فخاف والايها أن تقع ابنتهم باسمها في هذا الفخ، فقررا بعد تفكير عميق إلا يناقشا الأمر إلى ما قبل موعد الولادة بشهر، وفي هذه الفترة كان كل واحد يفكر بمفرده في اسم ليحسموا الأمر. نسي الجميع موضوع اسم المولود وانشغلوا بتقديم الهدايا والمساعدات لوالديها، وقبل شهر من موعد الولادة اجتمع والدا إم وكشفا عن الاسم الذي وصلا إليه، فقال أبوها: إنه رأى أن أنسب اسم لابنته هو مي، فقالت والدتها: إنها كانت قد استقرت على اسم منى، وكانت صدفة عجيبة أن اختلفا الاسمان في حرف واحد فقط، ولكن ظلت هناك مشكلة إنهما لم يتفقا على إسم معين، ولم يكن لأحدهما حيثيات قوية لإقناع الآخر باختياره، فظلت الابنة التي على وشك دخولها إلى الحياة، دون اسم، وأصبح نقاش الاسم نقاشاً حاداً ومتوتراً ولم يصل والدها إلى شئ، ولكن قبل الولادة بأيام كان الوالد جالساً في الصالون يراجع بعض أوراق العمل عندما سمع زوجته تصرخ من غرفة النوم «عرفت! عرفت!»، فركض إليها بفزع وهو لا يفهم سبب صراخها، وعندما خطى داخل الغرفة قالت: «إم .. هنسمي بنتنا إم»، اندهش الوالد من الاختيار، وطلب تفسيراً لهذا الاسم العجيب، فقالت:

إن الاسم ليس من إبتكارها بل، من خيال الأديب جوزيه ساراماجو[٣] ، ثم لوحت بكتاب بيديها وشرحت أن رواية «كتاب الرسم والخط» التي كتبها تحمل شيئاً عبقرياً، فالشخصية الرئيسية للرواية: إتش، والتي تُكتب الرواية بضميره، يقرر أن لا يفصح عن اسمه، ولا يفصح عن اسم أحد عملائه فيسميه إس فقط، ويبرر هذا (حسب تفسير والدة إم) بأن عندما نعطي إسماً لشخص نضعه في موقع الثبات، فمهما مر الزمن سيظل اسمه يلازمه، وهذا شئ مضر، فالإنسان مثل اللون إذا إختلط بلون آخر يخلق لون جديد، وإذا اختلط بسبعة ألوان ينتج عدد لا ينتهي من الألوان، و إذا اختلط بعدد لا ينتهي من الألوان يعود إلى لونه الاصلي، وبالتالي فأن تعطي اسماً لشخص فإنك تقيده، إم من الممكن أن تكون مي أو مني أو حتى ميار، منار، مريم، مارية، مارينا، مايا، مليكة، مها، ميرا، مرح، ميس، مادلين، ماهيتاب، أو أي اسم آخر، لذلك إذا أصبح اسمها إم ستكون حرة في التغير والتطور مع الوقت، ستكون حرة في إختيار مصيرها.

إقتنع الوالد بهذه الفكرة العجيبة، ووافق على أن يكون إسمها إم.

تعجب عبد الرحمن من العمق الذي يكمن في اسم إم، وشعر للحظة بتفاهة شديدة، من جهة لأنه لم يسمع من قبل عن رواية الرسم والخط (أو أي رواية أخرى خارج المنهج الدراسي) ولم يسمع عن جوزيه ساراماجو قط، ومن جهة أخرى لأنه شعر بسطحية اسمه الشديدة الذي لا يقف خلفه أي أسباب غير أنه تم إختياره ليطابق إسم جده، فقط لا غير. ثم قال في تلقائية شديدة لم يقصد بها أي إهانة:
- وعلى كده بقى بتحبي إسمك؟

فنظرت إليه إم نظرة عتاب وأكدتها بقولها:
- هو مش عجبك ولا إيه؟

---

[٣] جوزيه ساراماجو: كاتب برتغالي حاصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٩٨

فقال عبد الرحمن بلسان متلعثم وهو يحاول تصحيح سوء التفاهم:
- لا ... لا، مش كده ... قصدي يعني ... أصل أنا بحب النهايات السعيدة للقصص، ف بحاول أعرف لو أهلك فعلاً حققوا هدفهم وأدوكي إسم بتحبيه.

فضحكت إم على توتره الشديد، وحاولت أن تزيح سوء التفاهم قائلة:
- آه طبعاً، إسم فريد من نوعه .. فعلاً بيوصفني.
- هو إسم حلو فعلاً .. بس مش متخيل إن أهلي ممكن يسموني عين أو صاد ..
ضحكت إم على خفة دم عبد الرحمن، وقالت: إنها يجب أن تستأذن لتعود إلى المنزل وتمنت أن يكون يوم عبد الرحمن تحسن ولو قليلاً، فأكد على ذلك، وقلبه عامر بالنشوة من احتمالية إشتعال فتيل علاقة حميمة، وطلب منها أن يراها مجدداً، فأعطته رقم هاتفها وغادرت.
إستطاعت إم في قليل من الوقت أن تجعل الشمس تشرق في وجه عبد الرحمن مرة أخرى بضحكتها التي تحمل بهجة لا تنتهي، وقصصها التي تزيده علماً لا يفنى، فعاد إلى بيته شاعراً بنجاح أول تجربة جامعية فاشلة..

الأكاديمية

تجذبه بوضوح، فرأى تجارة مثل الحاسبات مثل كل التخصصات الأخرى، ولم يكن هناك شئ مميز، لكن كلية الشرطة رغم امتعاضه من خوض تجربة البقاء أياماً متتالية في الاكاديمية دون العودة إلى المنزل، تعطي الشخص الذي يرتدي بزته الشرطية شيئاً من الوقار، حتى وإن كان حديث التخرج، أما إن كان حديث التخرج من كلية تجارة فسيقال عنه: أنه موظف أو شئ من هذا القبيل، إلى أن يصنع لنفسه إسماً، لكن الأمر يختلف في الشرطة، فالمؤسسة هي التي تصنع له اسمه. (أحياناً كنت أتعجب من أسلوب تفكير طارق ومنطقه، لكن فيما بعد أدركت أن هذا الأسلوب شائع).

بعد بضعة أيام من محادثاتهم أبلغ طارق والده قراره بدخول كلية الشرطة، ومع إنطلاق هذه الكلمات القليلة من فمه شعر لأول مرة أنه نجح في اختبار والده، وعندما تسللت ابتسامة إلى وجه والده الجاف دائماً وهو يباركه على حسن إختياره، كانت هذه الجلسة.. أو هذه الكلمة التي بارك فيها والد طارق ابنه هي نقطة التحول في علاقتهما التي تشخص السنوات التالية من عمر والده، وكأن قرار طارق بأن يخطو على خطوات

والده ومساره ضغط على زر الصداقة المفقود بينهما منذ ولادة طارق إلى هذه اللحظة ومن ثم، تحولت معاملة الأب لابنه تماماً، وكأنه أصبح «واحداً منهم» الآن، فأخذ يهرج معه، ويعطيه النصائح، وفجأة شعر طارق بانطلاق سيل فياض من الصداقة كان غائباً خلف حاجز ما، وحتى عندما انتهت الجلسة وبدأ طارق يغادر، احتضنه والده لأول مرة منذ زمن طويل، وبحراراة شديدة، كأنه الابن الضال الذي عاد فجأة لوالده من البرية بعد سنوات من العتاب والندم، وكانت من أغرب اللحظات التي مرت في حياة طارق، ووسط كل هذه المستجدات كان طارق غارقاً في دهشته، لدرجة أنه لم يدرك واقع الموقف إلا عندما جلس في هدوء وفكر فيما حدث، لأن الناس عادة تكون ذاكرتهم ذاكرة انتقائية، لتخلد ما هو عظيم وتكرر سرده، وتحجب كل ما هو قبيح فتنساه، وكان طارق يعتبر أن هذا هو يوم ولادته من جديد، ومحى أي ماضٍ يذكره بعلاقة والده الجافة.

كانت العلاقة بين طارق ودينا قد تطورت إلى حد كبير منذ ليلة المرقص التي وطدت قلوهما، وأصبح طارق حبيبها، وعشيقها، وهي حبيبته، وعشيقته. كانا قد قضياً أياماً ممتعة برفقة بعضهما البعض، وكانا غارقين في السائل اللزج غير المرئي المسمى بالحب، فكانت جلساتهما تتكون من فقرة متتالية من الضحك المتقطع الذي يفصله كلمات قليلة تعيد نوبة الضحك بعد أن يلتقطوا أنفاسهم، ولكنهما قليلاً ما كانا يتحدثان عن المستقبل، فدائماً ما يشغلهما موقف ليبكيهم من كثرة الضحك.

كانت حقاً علاقة بديعة وفكاهية إلى حد كبير، وفي يوماً ما أجلسها طارق أمامه، وقرر أن يفصح لها عن دخوله أكاديمية الشرطة، انقطع الضحك لوهلة، ثم عاد مرة أخرى قبل أن يخبرها طارق أن كلامه فى قمة الجدية، وأنه لا يمزح، فسيطر العبوس على وجهها، وانعقدت حواجبها في محاولة لإقناع حبيبها بسخافة اختياره، فهناك مئات الكليات التي يتخرج

منها الإنسان، ولا يكون الخطر على حياته شيئاً يومياً، ولكنه حاول أن يرواغها ويقول: إنه اختيار والده، والأمر ليس بهذا السوء، ولم تكن دينا أسعد إنسان على وجه الارض في هذا اليوم، فعلى عكس معظم أيامها، إلا أنها لم تجادل كثيراً، وقبلت الأمر في النهاية، فتحول إلى مزحة بعد قرارها بأن تناديه باسم «يا دفعة» مثل العساكر.

في اليوم المحدد وفي الساعة المحددة، ارتدى طارق بزته والتقى بوالده ليذهب إلى أكاديمية الشرطة، المكان الذي سيعطيه قيمة في الحياة، وكان دخوله الأكاديمية بجوار والده مهيباً، ولم يقم طارق بالإجراءات العادية التي قام بها عامة الطلاب، بل توجه مع والده إلى مكتب رئيس الأكاديمية على الفور، وسط تحيات الضباط والعساكر في الأروقة، ولم يدرك طارق حجم نفوذ والده فعلياً إلا عندما دخل مكتب رئيس الأكاديمية، تقدم رئيس الأكاديمية على الفور بتحية حارة، قبل أن يجلسوا ويتحدثوا عن بعض الذكريات المشتركة، ثم بدأ والده يوصي عليه توصية لم يتوقعها طارق أبداً، لدرجة أنه كان يطلب معاملة ابنه معاملة ملكية رغم انتهاء النظام الملكي في مصر منذ عقود، ولم يصدق طارق ما يحدث، وإنزاحت كل شكوكه عن اختياره لهذا المسلك، وشعر بفخر شديد وهو خارج من المكتب.

تعاقبت الايام وطلاب أكاديمية الشرطة في وادٍ وطارق في وادٍ آخر، ولم يشعر طارق بأي تضيبق على حياته كما تخيل، فكان له شبه حرية مطلقة في التحرك، بشرط حضور معظم المحاضرات، ولم يكن طارق يغيب عن محاضراته، لكنه لم يذاكر قطً لأي شئ، وكانت أحياناً تغفل عيناه، ورغم ذلك كان ينجح في الاختبارات بشكل مشكوك فيه، ولم يشك طارق نهائياً من هذه الحياة المقدمة له على طبق من ذهب، فكانت درجاته مشرفة، ووالده فخور به و بأداءه على الدوام، رغم إن الجميع يعلم أنه لا يفعل شيئاً، إلا أن واقعه هكذا كان، وعندما تأتي الافراح لا نشكك فيها، بل نحتضنها.

وقد ظهرت حقاً مميزات هذا المسلك المهني، فعندما تكون ابن شخص مثل والد طارق يعمل في مكتب الوزير، تصبح الشرطة أنسب مكان وأريحهما، وكان طارق متحمساً للأيام القادمة، وكان يحب تواجده في الأكاديمية، لأنه يعتبر حالة استثنائية، لكنه كان ينتظر الأيام التي يأخذه والده إلى عمله، ليرى الحياة التي سيسعى إليها عندما يصبح ضابط شرطة كبير.

نقاط التقاء وافتراق

(في معظم الجامعات التي دخلتها للدراسة، أو حتى على سبيل الزيارة تأكد لي بشكل قطعي أن قسم الفلسفة في أي جامعة يعتبر قسماً فريداً من نوعه إذا قارناه بأي قسم آخر، واكتشفت - على سبيل المثال - أن بعد فترة من دخولي أقسام الفلسفة في جامعات مختلفة أصبح لدي موهبة تمييز قسم الفلسفة عن الأقسام الأخرى دون إشارة لافتات أو أشخاص بذلك الأمر، لكن وسط كل هذا كان قسم الفلسفة الذي ترتاده إم من أعجب ما يكون).

كان قسم الفلسفة في جامعة إم من أزهى الاقسام على الإطلاق، فبمجرد أن تخطو داخل القسم يبدأ صدي حوارات عميقة يتسرب اليك، لا أعلم سبب اختلاف هذا القسم بالأخص، لكن كان طلاب القسم متعددين ومختلفين إلا أنهم متداخلون كألوان الطيف، لا نستطيع أن نحدد فواصل واضحة بينهما، وفي الوقت ذاته هناك تعددية عجيبة في عدد الألوان التي نراها، فكان طلاب هذا القسم متعددين باندماج شديد. وكان لإم شكل واضح وسطهم، كأنها تكتمل وسطهم، وفي الوقت ذاته تكملهم، مثل قطعة صغيرة في صورة مرسومة من الفسيفساء،

وبالقطعة تكتمل الصورة، وبالصورة تصبح القطعة جزءً من شكل واضح أكبر تستطيع أن تحدد لونها فقط عندما تقارنها بألوان القطع الأخرى.

وربما تشبيه الفسيفساء يحمل شيئاً من المبالغة لأن حجم دفعة إم - في واقع الأمر - ضئيل بعض الشئ مقارنة بالأقسام الأخرى، لكنه كبير نسبياً بالنسبة لأقسام الفلسفة في جامعات أخرى ودفعات وجامعات أخرى، لكن ورغم ضآلة حجمهم إلا أن قيمة ثقافتهم تعطيهم حجماً من نوع آخر، وكانت الدفعة تشكل مجموعة واحدة من الأصدقاء، على عكس الأقسام الأخرى التي تتكون من دوائر صداقة لا تنتهي، وكانت المجموعة دائماً تنجرف في أعجب النقاشات التي من الممكن أن يتخيلها العقل، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وإن حاولت أن أشرح عمق النقاشات الفلسفية الدائرة في جلساتهم فستكون بمثابة محاولة لشرح طعم الماء، أو رائحة الاكسجين.

كانت معظم النقاشات - بشكل أو آخر - تنتهي بانقسام المجموعة إلى جبهات حسب الانتماءات الفكرية المختلفة، فالفلسفة لا تعرف الاجماع، ولا تقبل اجابات نموذجية، ولا حتى البراجماتية والتوافق في النقاش. وكانت إم لا تزال في حيرة، فهي لم تصنف نفسها بعد لتنتمي إلى تيار فكري بعينه، وفي معظم الأحيان تلتزم بدور المستمع في النقاشات الحادة، فكانوا يستلذون بمضايقتها لصمتها ويلقبونها «بالحيادية»، وفي هذه المجموعة كانت كلمة «حيادية» تستخدم كلفظ سب، لأن الشئ الوحيد الذي اتفقت عليه المجموعة بأكملها هو أن «الحيادية» وهم لا يستطيع الإنسان أن يصل إليه بسبب تعلقه برأي أو آخر، حتى وإن كان هذا بلا وعي، وبالتالي من يستخدم كلمات مثل: «حيادي» أو «موضوعي» يحاول فقط أن يكتسب مصداقية مفقودة، فكان وصف إم بالحيادية دعابة مهينة لعقلها.

وفي المقابل عندما كانت تشترك إم في النقاش كانت - في أغلب الأوقات - تجد نفسها في صف مجموعة اليسار بالمجموعة إلا في بعض المواقف التي كانت تتمسك برأي يتوافق مع تيارات فكرية مختلفة، لأن إم رفضت أن تصنف نفسها بشكل كامل مع إحدي المجموعات، وكانت تحرص على تناسق مبادئها، وترتيب أفكارها، ودقة كلامها، بحيث لا تقع في فخ التناقض بشكل أو آخر، فالتناقض في الكلام من أبشع الجرائم التي من الممكن أن يرتكبها شخص وسط فلاسفة محتملين.

وفي يوم ثلاثاء سخيف وبعد إحدى محاضرات الفلسفة اليونانية كانت إم متوجهة لمقابلة بعض أصدقاء الفلسفة في الكافيتريا، عندما التحقت بها إحدى أفراد المجموعة، التي لم تكن على صلة قوية بها، ولكنهم كانوا يتقابلون بين حين وآخر في تجمعات الأصدقاء، وافتتحت الحوار متسائلة:

- انتي رايحة الكافتريا للناس؟

ردت إم بالابتسامة التي لا تفارقها:

- آه .. هتيجي؟

- آه .. بس كنت عايزاكي في موضوع الأول.

كانت عبارة «عايزاكي في موضوع»، والعبارات المماثلة التي تحمل نفس المعني، دائماً مثيرة للريبة بالنسبة لإم، ولم تتخيل أبداً أن افتتاح حوار بهذه الكلمات من الممكن أن ينتهي بخير، لكنها هزت رأسها بفضول، فأكملت زميلتها:

- أنا أخدت بالي من فترة، إنك في كل النقاشات اللي بتدخليها بتكوني ماشية في سكة اليسار أكتر ..

فعلي الفور قاطعتها إم وصححت لزميلتها:

- مش كل النقاشات الحقيقة، بس جزء كبير منها .. أنا عموماً مع المفهوم اليساري للعدالة الاجتماعية

هزت زميلتها رأسها كـأنها تشكرها على قيادتها لصلب الموضوع في اختصار شديد، وقالت:

- عموماً الحركة الماركسية في الجامعة بتخطط لتوسيع نشاطها، وطرح مبادرات مهمة في الفترة الجاية، وحسيت من كلامك إنك ممكن تكوني الشخص المناسب للمشاركة في حاجة زي كده، أو حتى قيادة مبادرة من المبادرات في المرحلة الجاية .. أصل بيني وبينك مفيش يساريين كتير فاهمين كويس النصوص والمبادئ الفلسفية اللي بتقوم عليها الأيدلوجية زيك..

لم تتوقع إم أن تطرح زميلتها أمراً مثل هذا، فهي لم تفكر بتاتاً في الانضمام بشكل رسمي إلى أي مجموعة، وعنصر المفاجأة لم يساعدها، لكنها فكرت أن تقبل بمبدأ أنه لا يوجد مشكلة في المغامرة، إلا أنها عادت لتفكر أذ ربما كان من الأفضل أن لا تتسرع في قرار مثل هذا، وتعود لتندم عليه، ثم قالت لنفسها: التصنيف شئ بغيض على كل حال وأقنعت نفسها أن تقول:

- ماعتقدش أن الوقت مناسب لسه إني آخد خطوة زي دي وانضم لتنظيم، وأنا لسه مش متأكدة بشكل كامل إذا كانت دي حاجة أنا مقتنعة بيها، لكن في نفس الوقت أنا مهتمة أساعد في المبادرات اللي انتوا هتعملوها في المستقبل بشكل فري، لحد ماخد قرار واضح..

لم يعجب زميلتها الكلام، فاحتفظت بابتسامة مصطنعة لتوحي بقبولها الأمر، وقالت:

- خلاص مفيش مشكلة هنتكلم تاني.

اختفت زميلتها بعد هذا اليوم، ولم يطرح الموضوع من أصدقائها اليساريين الآخرين، ولم تسمع عن أي مبادرات قامت بها الحركة الماركسية في الجامعة، وكلما تذكرت الأمر تعجبت أكثر وأكثر، كأنه مجرد خدعة، أو شئ من هذا القبيل.

كانت إم ترى عبد الرحمن كل بضعة أيام في الجامعة أو خارجها، ونظراً لأن كل واحد منهم كان مشغولاً في دراسته، ولا يوجد أي مواد مشتركة بين قسم الفلسفة ومواد الصيدلة كان أحياناً يمتد الغياب إلى إسبوع، ورغم ذلك ظلت العلاقة تتوطد، والمشاعر تتولد أكثر فأكثر مع كل مقابلة، وظلت جذور العلاقة تتعمق وتمتد مع الوقت في تربة المحبة الخصبة، ولكن لا يستطيع أحد أن يصفهمت بالعاشقين حتى هذه اللحظة.

كانت إم جالسة أمام عبد الرحمن في إحدى المقاهي يتبادلان الحديث في مواضيع ليس لها أهمية كافية أن تُذكر، عندما انتفض عبد الرحمن فجأة من كرسيه بحماس، وشاع من وجهه ابتسامة بعثت نور الحياة، وقال:

- مش أنا ماقولتلكيش اللي حصل ...

ظهر على إم علامات التشوش، لتوحي بعدم قدرتها على فك شفرة حماسه الزائد، ثم قالت بفضول:

- حصل إيه ؟؟

زاد حماس عبد الرحمن مع شعوره أنه جذب انتباهها، وأصبح مركز اهتمامها الكامل، وقال في لهفة:

- كنت جاي مع ناس صحابي كلية الآداب ناحيتكم عشان يسلموا على حد، فقالوا: نروح نقعد في الكافيتريا اللي هناك شوية عشان ناكل بالمرة .. فا واحنا هناك لقيت بالصدفة اتنين من صحابك قاعدين وبيتناقشوا مناقشة سخنة جداً، كان ناقص يعني يقوموا يضربوا بعض، والكلمة الوحيدة اللي لقطها في الحوار هي «مرض اليسارية الطفولي» ... وبعدين استغربت جداً إني عمري ما سمعت عن المرض ده خالص .. وبعدين قلت: ده أكيد مرض نادر جداً، فا تاني يوم شوفت ع الانترنت، ومابقيتش فاهم حاجة خالص.. هما صحابك كويسين؟

بدأت إم تضحك بهستريا شديدة، وسالت دموعها على خديها وهي تحاول أن توقف الضحك ثوان، لالتقاط بضعة أنفاس، وبدأت عضلات بطنها تؤلمها من شدة الضحك، الذي سببه عبد الرحمن، ولم يفهم عبد الرحمن النكتة، وشعر بالحرج الشديد، فسكت لبرهة من الوقت، ثم قال بازدراء مصطنع:

- أنا غلطان إني بتكلم معاكي أصلاً ..

شعرت إم أنها قد أحرجته وحاولت أن تسيطر على ضحكها الصاخب، ثم قالت وهي مازالت تقهقه بعض الشئ:

- ... أنا آسفة ... أنا آسفة، بس ضحكتني بجد .. بس الاتنين اللي انت شفتهم بيتكلموا دول كان شكلهم إيه؟

فرد عبد الرحمن بلا مبالة كأن الأمر لم يعد يحمل الأهمية بعد أن ضحكت عليه إم:

- ولا يهمك يا ست .. كانوا اتنين شبه بعض كده، شعرهم طويل وعاملينه خواتم [4] كده .. وعندهم شنب ودقن كده

ضحكت إم من إسلوب وصفه، ثم قالت بنبرة توحي باستنتاجها الشخصيات التي يتحدث عنها:

- أه دول اتنين شيوعيين .. و«مرض اليسارية الطفولي» ده مصطلح كان أطلقه لينين في واحدة من كتاباته في أوائل العشرينات.. مش مرض متقلقش، ده ...

وقبل أن تكمل شرحها، قاطعها بتعجب كأنه لم يصدق كلامها:

- شيوعيين! .. أستغفر الله العظيم

للوهلة الأولى اعتقدت إم إنه يمزح فقط، لكنها عندما وجدت على وجهه كل علامات الجدية قالت:

---

[4] تعبير شعبي للشعر الاكرت

- أستغفر الله العظيم من إيه بالظبط؟

فرد عبد الرحمن بتلقائية شديدة:

- الشيوعيين طبعاً .. مش دول الكفار اللي بيحاولوا يلغوا الأديان؟

لم تجواب إم على سؤاله وردت بسؤال جديد وهي مازالت غارقة في دهشتها من المنحدر العنيف الذي تخذه الحوار:

- انت سمعت الكلام ده فين؟

- كل الإخوة بيقولوه.

- الإخوة؟!.. هو انت في جماعة من جماعات دول!

- لأ .. أنا لسه ما وصلتش لدرجة الايمان إني أدخل الجماعة .. بس ناوي بإذن الله أستغل رمضان الجاي وانضملهم .. ده أنا حتى كنت هاقترح عليكي تتعرفي على الأخوات ..

صدمت إم من كلام عبد الرحمن، ولم تستوعب معظمه كأن حاجزاً خيالياً ظهر فجأة بينهما، وساد الصمت للحظات وهي تشعر أن الواقع يهزم الخيال أمام عينيها، ثم قالت:

- يابني أوعى تسمع كلامهم وتنضم، دول دجالين باسم الدين .. عايزين يغسلوا مخك ويستغلوك..

كان إسلوب إم وكلامها دراميا أكثر من اللازم، وبالتالي لم يقتنع عبد الرحمن به، بل شعر بضرورة أن يوضح وجهة نظره، ويدافع عنها:

- الموضوع مش كده خالص صدقيني، دول ناس جدعان جداً، وفي نفس الوقت قريبين من ربنا، اتعلموا يحبوا الناس ف الله ..

قاطعته إم بحدة:

- دول هيخلوك إرهابي!

تعجب عبد الرحمن من أسلوب تفكير إم وصاح فيها:

- ما تقوليش عليهم كده .. دول ناس جدعان وتعرف ربنا .. مش فاهم انتي إيه مشكلتك معاهم!

بدأت الناس في المقهي ينظرون إليهما وقد علا صوتهما أكثر وأكثر، وشعرت إم بالإحراج من الموقف، وفي الوقت نفسه أدركت أن عبد الرحمن لن يتفهم الأمر، فقامت من مكانها وقالت:

- لما تعقل نبقي نتكلم ..

غادرت إم المكان في عصبية شديدة وهي تقتلع جذور العلاقة التي نمت وترسخت عبر الشهور، فدائماً كان الهدم أسهل من البناء.

(عندما سمعت حكاية صدام عبد الرحمن وإم لأول مرة لم أصدقها، لأنني شعرت إن الحادثة والحوار أشبه بما يحدث في الافلام والقصص، أي: يحمل شيئاً من الابتذال، ولكن عندما كرر الطرف الاخر القصة في وقت ومكان مختلفين وبنفس الدقة، توثقت من الأمر، وألحت على نفسي أن أكتبه كما حدث، وليس كما تمني خيالي أن يدور الامر).

الدخول إلى عالم جديد

رغم قلة الصفحات التي كتبت بين دخول طارق أكاديمية الشرطة وهذه النقطة في القصة، مر الوقت دون حدوث شئ يستحق التدوين هنا، أو ربما كان هناك شئ يستحق التدوين، لكن طارق أخفاه عني، (فعلى كل حال أنا جالس أمام جهاز كمبيوتر أكتب، ولم أجلس لأدون القصص الصادرة من كرتي الزجاجية السحرية). وبشكل أو بآخر تلاشى الوقت ليصل بنا إلى هنا. حقاً، الوقت من الأنظمة التي قررنا أن نعيش بها، فبعيداً عن التعريف الفيزيائي المعقد للوقت، نستطيع أن نقول إن الوقت كما نعرفه بالمقاييس المعتادة (الساعة، اليوم، الثانية ... إلخ)، وهي مقاييس من صنع الإنسان، فنحن من قررنا - حتى وإن كان على أساس علمي - أن اليوم يحتوي على أربعة وعشرون ساعة. أتحدث عن الوقت بشكل مفرط لأنه من الأنظمة التي تحيرني بشكل مؤلم، فرغم إننا أعطيناه مقاييس ثابتة متفق عليها عالمياً بشكل أو آخر، مرت أيام الأكاديمية على طارق ببطء شديد رغم اختفاء العقبات منها، أو على حد قوله عندما كان حديث التخرج «مرت كأنها قرن»، لكن عندما تكلمنا من بضعة أعوام (أي: بعد تخرجه بحوالي عشر سنوات) عن أيامه في

الأكاديمية كان يحكي «أنها أيام الاكاديمية مرت مثل الهواء» عندما قارنها بحاضره. فلم أعد أفهم علاقة الإنسان بالوقت، أحياناً يمر بسرعة، وأحياناً يمر ببطء، وأحياناً يمر بسرعة رغم اعتقادنا أنه يمر ببطء، وأحياناً يمر ببطء رغم اعتقادنا أنه يمر بسرعة، وفوق كل هذا علمياً الوقت يمر بمقياس ثابت ولا يهتم باعتقادنا، لا أدري ما هذا الذي صنعناه بأنفسنا؟ ألم يكن من الأسهل أن ننسي مسألة الوقت تماماً بدل الأرق الذي سببه لنا؟ لحظة، لحظة، يبدو إني سقط سهواً عندما قررت أن مقاييس الوقت من صنعنا، فعلي حد معرفتي أول مرة يذكر فيها مقياس الوقت هو عندما خلق الكون في ستة أيام، وأخذ السابع للراحة، إذاً مقاييس الوقت أوامر إلهية، ويبدو أن حيثيتها - إن صح لنا أن نتسأل - أكثر تعقيداً من أن تفهمها عقولنا البشرية، لكن من منظورنا الضعيف ستظل هناك علامات استفهام حول «الوقت».

إذاً، سامحوني عندما أقول: إن الوقت مر بسرعة أو ببطء لأنني في الحقيقة لا أعلم، لكن وعلى كل حال مر الوقت، ووجد طارق نفسه في موقع لم يتخيله أبداً، وجد نفسه واقفاً في طابور المتفوقين لدفعة أكاذيمية الشرطة التي سيتم تكريمها من رئيس الجمهورية. (سيطرت عليّ دهشة شديدة عندما عرفت أنه من الأوائل، وأعتقد أنه شخصياً لم يصدق)، لم يصل طارق إلى هذا الموقع إلا بسبب الأسماء التي تابعت اسمه، فإن استعنا بالأديان الهندية للحظة، وتخيلنا إن طارقاً توفي، وروحه عادت إلى الارض في جسد ابن أمين شرطة بوزارة الداخلية (نتخيل الآن فقط أن روحه تجسدت في إنسان جديد لتجنب التعقيدات، لكن حسب المعتقدات الهندية المختلفة من الممكن أن يتم إعادة بعثه في جسد أي كائن) بالتأكيد إذا كان أداؤه الدراسي مماثل لما كان عليه، فلا أعتقد أن طارقاً كان سيجتاز السنة الدراسية الثانية في الاساساً.

على كل حال، وبعيداً عن الأديان الهندية وغيرهما، فهكذا دارت

الامور، وتم تقليد طارق وساماً وُضع على صدره بيدي رئيس الجمهورية نفسه في احتفال مهيب يليق بموقع الرئيس ووقاره.

كان طارق مغمورا بالسعادة لكونه جزءً من حدث بهذه الأهمية، فإذا كان لسبب أو آخر قرر أن يدخل كلية التجارة، كان في الأغلب سيستلم شهادة التخرج من نافذة متسخة، يجلس خلفها موظف يكره الحياة، من إحدى نوافذ مبنى شئون الطلبة، وكان سينتهي الامر على ذلك، لكنه الآن هو جزء من التاريخ، وهو مازال في بداية عمره المهني، وقد تمني طارق أن تتوقف الدنيا ويتوقف الوقت اللعين لحظة تكريمه من قبل الرئيس، أو أن فعل تكريمه يتكرر بشكل أبدي، تكراراً لا ينتهي، مثل مبدأ العودة الابدية لنيتشه، لكني أعتقد أنه في حالة طارق، وفي كل مرة سيعاد الحدث سيشعر بنفس النشوة، ونفس اللذة ستبعث في جسده، على عكس ما تخيله نيتشه من اختلاف قيمة الفعل مع تكراره بشكل أبدي.

انتهي حفل تخرج طارق ولكن لم ينته الاحتفال بعد، وعاد طارق إلى البيت بعد الانتهاء من المراسم ليجد عائلته في انتظاره، بما فيهم والده، وبدأ الاحتفال الصاخب من العائلة، حيث أقامت والدته وليمة لكل من جاء، تتكون من أحب أنواع الطعام إلى قلب طارق، وخلال كل هذا كان كل شخص في العائلة ينفرد بطارق للحظة، ويعطيه هدية النجاح، ولم يشعر طارق أنه حقق شيئاً بهذا الحجم من قبل، كان فخوراً بنفسه بشكل جعله ينسي أن كل هذا حدث بسبب والده، وليس بسبب تفوقه الدراسي، وكان والده يجلس على كرسي قرب التلفاز وعمه جالساً بجانبه يتحدثان في شئ لا يبدو مهماً، وطوال الاحتفال لم يعر والد طارق ابنه أي إهتمام اطلاقاً، والجميع أعطوه الهدايا إلا والده، وربما كان و يعتبر أن المنحة الحقيقية لابنه هو أن أصبح من الأوائل، أو ربما لأنه تعامل مع الأمر على إنه شئ طبيعي وبديهي لا يستحق كل هذا الاهتمام. وفي

المقابل لم يحاول طارق أن يشكر والده على أي شئ، أو حتى ينسب إليه الفضل. ومر الوقت واستمرت الأمور على هذا النهج، وكان طارق واقفاً يتكلم مع خالته عندما التقت عينيه بعيني والده، فأعطاه والده إشارة استدعاء وهو يلوح بأصابعه في الهواء، وعلي الفور استأذن طارق من خالته، وذهب ليجلس بجانب والده، وافتتح والده قائلاً:

- فاكر لما قعدنا من أربع سنين في النادي وبعدها قررت تدخل شرطة؟

رد طارق في ابتسامة:

- طبعاً، هو ده يوم يتنسي.
- المرة دي بقى أنا مش هسألك، أنا هقولك ..

ظهر على وجه طارق التشوش المعتاد وهو يحاول فك ألغاز والده:

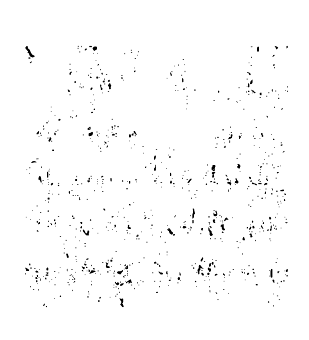
- مش فاهم ..
- يعني أنا بحاول أقولك إني طلبت تعيينك في أمن الدولة، لأن ده أهم وأرقي قطاع في الوزارة

عادت الابتسامة لوجه طارق وهو يقول بخشوع تام:

- خلاص اللي تشوفه ..

ثم قام والده من جانبه بعد أن أبلغه الرسالة وأعلن عودته إلى المكتب، ولم يطل الاحتفال العائلي بعد ذلك كثيراً، وقبل أن يغادر الجميع استغل طارق الموجة وغادر مع آخر شخص ليتجه إلى الاحتفالات الحقيقية مع الأصدقاء، وكانت دينا وبعض الأصدقاء ينتظرونه في إحدي الحانات الواقعة على النيل، وعندما ظهر طارق وفي يده زجاجة ويسكي معتقة اقتناها للمناسبة بمبلغ ثمين، لم تختلف هذه الليلة عن معظم السهرات في مراسمها، ولكن كان الجو العام منتشى أكثر من العادة، وبالتالي كان صاخباً أكثر من العادة، لذلك لم يطل الوقت قبل أن يصل الجميع إلى الثمالة، وكان هناك حماس غير اعتيادي على شرب الكحول في هذه الليلة بالذات.

مع تثاقل رؤوسهم، وخفة أرواحهم، دعى طارق الجميع إلى منطقة الرقص، وكانت هذه الدعوة تشمل كل شخص في الحانة، فبعد كمية كافية من الكحول يتحول الجميع إلى صديق، تقريباً لبى الجميع نداء طارق، وبدأت الحانة في تشغيل الموسيقى المناسبة، فاندمج طارق مع دينا في الرقص، وتمنى في ذهنه أن يختفي كل من حوله ليستمتع بهذه اللحظات الرائعة، لكن صراخ دينا انتشله من خياله وهي ملتفتة لشخص وتقول: « يا قليل الأدب يا حيوان!»، لم يري طارق ما حدث، ولم يهتم كثيراً بكشف الأمر، لكنه كان قد دخل وضع الاستعداد لمقاتلة كل من يمس حبيبته أو يضايقها، فمسك بالشاب من قميصه وهو يسبه، ثم سحبه إلى جنب، وبدأ يضربه ضرباً مبرحاً، وكان الشاب أحد العاملين في المكان، ولكن لم يدرك طارق هذا إلا عندما انقض عليه زملاؤه وبدأت الكثرة تغلب الشجاعة، فتسلح طارق بكرسي ليدافع عن نفسه وهو يصرخ: «أنتم ما تعرفوش أنا أبقى مين؟!.. أنا هربيكم!».



علاقات افتراضية

الجامعة كالدوامة الخفية، تبتلع من يقترب إليها في عمقها الدراسي والاجتماعي والسياسي، وترعب من يدركها فيفر إلى بر الأمان. هناك طلاب في الجامعة لا نراهم إلا مرة في السنة، وقت الامتحانات، فوجودهم لا يفرق إلا على الأوراق والدفاتر، فتتحول العلاقة بين الطالب والمؤسسة إلى مجرد مرحلة على الطالب أن يجتازها، رغماً عن أنفه، ليصل إلى المرحلة التالية، أو بمعني أصح: يتعاملون مع الحياة مثلما يتعاملون مع الالعاب الإلكترونية، فتتحول الحياة إلى مجموعة من الطوابق (أو بلغة الألعاب الإلكترونية ال Levels)، فيتعاملون مع كل مرحلة دراسية على أنها طابق يجب اجتيازه للوصول إلى الطابق التالي، وكما هو معروف في هذه الألعاب دائماً يكون الطابق الأخير في اللعبة هو طابق مواجهة الوحش، أي: الطابق الأصعب، فكل شخص يحدد هذا الطابق في حياته حسب خارطته، فالبعض يري أنه إذا اجتاز المرحلة الجامعية وحصل على شهادة، فهو قد إجتاز الوحش ولا يريد شئ آخر من الدنيا، فيتحول كل شئ يأتي بعد ذلك إلى زيادات، وهناك آخرون يرون أن طابق الوحش هو طابق ما بعد الجامعة، أي: طابق مواجهة الحياة. أصبحت العقلية

الإلكترونية في الحياة منتشرة جداً، وكانت إم دائماً تخشى أن تتفاعل مع هذا النوع من الناس، خوفاً من أن تتحول إلى واحدة منهم، شخصية آلية تحتسب كل شئ من مشاعر وتحركات إلى كل درجات «أعمال السنة» التي ستساعدها على اجتياز الطابق. دعت إم نفسها لتنجرف في الدوامة الجامعية بكل يقين، وبدون تضحية بأي بعد من أبعاد المؤسسة على حساب الآخر، فتوالفت الأبعاد السياسية والاجتماعية في تناسق واندماج شديد. تركت إم معظم النشاطات التي كانت تقوم بها وقت المدرسة، وتفرغت تماماً للنشاط الجامعي، فحرصت إم على التفاعل مع الكثير من المثقفين خارج قسم الفلسفة الذين يتناسبوا مع عقليتها واهتمامتها، فشكلت شبكة اجتماعية قوية تضم أناساً من كل أنحاء الحرم الجامعي، فكانت تنخرط في مشاريع ثقافية ومبادرات اجتماعية بشكل مستقل وتعمل باهتمام وإخلاص شديد.

دراسياً، كانت إم تسير على المسار الذي تنويه وإلى الهدف الذي حددته، فكما قلت من قبل إم من الناس القليلة الذين عرفتهم في عمري القصير التي تعلم بوضوح شديد الهدف، الذي تريد أن تصله في حياتها، فهي ترى هدفها بنقاء مائي لم أره من قبل. ومعظم أبناء هذا الجيل وبناته لا يعلمون، ولم يفكروا في الأساس في الهدف الذي يريدون أن يخصصوا حياتهم له، فتأخذهم أمواج المصادفات وترميهم على اليابسة التي تريد، ولكن لم تدع إم الأمواج تسحبها إلى الجهة التي تشاؤها، فمن قبل دخولها الجامعة وهي لديها ولع شديد بالفلسفة، فقررت أن تهب نفسها للأسئلة الابدية التي لا تنتهي، ويظن البعض إنها بلا إجابة لتفك ألغازها وتبحث عن معاني الحياة الكامنة في تفاصيلها اليومية وأراءنا السطحية، فمع دخولها الجامعة وضعت رجلها على أول الطريق الأكاديمي الذي تنوي أن تتخذه إلى آخره لفهم بشريتنا العجيبة.

أما سياسياً فكان الوضع ملتهباً، فرغم التضييق الأمني وقلة المهتمين

بالحياة السياسية في هذا الوقت، كانت المظاهرات تخرج بشكل أسبوعي، في أعداد ضئيلة، لتندد بجرائم النظام في الداخل، وضد الأنظمة المستبدة في الخارج. وتكونت في أغلب الأحيان هذه التجمعات من الكثير من المستقلين مثل إم، بالإضافة إلى بعض التيارات اليسارية والقومية، رغم أن البعض كان يفضل تصنيف إم على أنها جزء من اليسار، إلا أن إم كانت تعتبر نفسها من المدافعين عن حقوق الإنسان أكثر من أي شئ. (تصنيف الناس بشكل عام أحد الاشياء التي أخشاها وأتعامل معها بحذر شديد، فوضع الناس في خانات مغلقة تحت مسمي أو آخر أحياناً يدفعنا إلى استنتاجات ونتائج بلا وعي لا تعبر عن الشخص نهائياً، بل وتنتهي بنا إلى تشكيل، رأي كامل ونتخذ موقفاً على أساس هذه التصنيفات. وبالتالي عندما أصنف إم في إتجاه سياسي أو إجتماعي معين هو لا يعكس تصنيفي الشخصي، بل التصنيفات التي يلصقها بها معظم أصدقائها، أو التصنيفات التي يصنفون بها أنفسهم بشكل صريح ورسمي. في هذه الأيام أصبح البعض يصنف نفسه بأشياء يجهلها لمجرد الالتحاق بالموضة، وأصبح آخرون ينفون صلتهم تماماً بتصنيف معين رغم تطابقهم الكامل معه، لمجرد أنه لا يناسب المزاج العام، فأصبح التلوين هو المزاج العام، لذلك أخشى التصنيف).

لم تكن أيام إم في الجامعة هادئة على الإطلاق، إذ كان الحراك السياسي يزداد بشكل يومي ومع اقتراب انتخابات اتحاد الطلبة ازداد التضييق الأمني، وأقتحم الأمن المركزي الحرم عدة مرات لفض التظاهرات، وقاطع الكثير من المجموعات الانتخابات لرفضهم تدخل السلطات، لكن في النهاية أتت المجموعة التي أردها الأمن، المقربة من السلطة كما يحدث كل عام، لكن التغير الحقيقي كان في رد الفعل. قامت أحداث الشغب لبضعة أيام متتالية، وفي كل مرة يفض الأمن التظاهرات، تعود لمواقعها وتبدأ المعركة من جديد. كان عند إم إيمان قوي بأن محاربة الدولة الأمنية

من أهم الأشياء التي ستنهي الاستبداد النظامي، فشاركت في الصفوف الأولى بالمعركة، وقذفت الطوب على الامن، وحملت المصابين ورافقتهم إلى سيارات الأصدقاء، خوفاً من أن يتم القبض عليهم في المستشفيات إذا أخذتهم سيارة الاسعاف، وكان هناك حالة شديدة من التوتر في الحرم الجامعي لحفنة من الأيام، حتى انتهت التظاهرات وانتصر الأمن مجدداً، فكان الطلبة في حالة انكسار شديد، لكنهم لم يفقدوا الأمل، فتركز المجهود الأكبر في دعم المعتقلين، ومساعدة المصابين، حتى يستعيد الطلاب قوتهم.

وكما هي العادة مع كرور الوقت نسي الجميع القضية وكل شخص انخرط في مشاغله، ولم يعد هناك إلا قلة قليلة تهتم بالقضية، فكانت الامتحانات على الأبواب وبدأ الناس تخشى على مستقبلها، فقدمت الامان على الحقوق وانتهي الأمر، ولكن لم يظل السكون طويلاً، ظهرت أنباء عن وفاة أحد الأشخاص من آثار التعذيب في أحد أقسام الشرطة، وكان الضحية أحد المعتقلين في أحداث الجامعة، لكن على عكس زملائه كان موجه إليه تهمة حيازة مخدرات، ولم يكن هذا الشخص جزءً من حركة أو تنظيم، ولم يكن له أصدقاء كثيرون، فلم يهتم فصيل معين إلى حد كبير بهذا الحدث، ولكن إم كانت من أكثر الناس المتأثرة بالموقف، واستطاعت أن تجذب بعض التنظيمات اليسارية للحشد ضد هذه الواقعة.

قادت إم حملة قوية ضد الأمن والشرطة بسبب هذا الحدث وبدأت نشاط قوي داخل الجامعة. ولم يكن من عادة الأمن اعتقال الإناث آنئذ، ولا أدري إذا كان هذا سببه أن الفتيات سيكتسبن تعاطفاً أكبر من الرأي عام، أم أنها مجرد الذكورية الأمنية العادية، (لا أقصد أن عدم تعرض الأمن للإناث كالذكور في هذا الوقت شئ سئ)، المهم أنه لم يتعرض أحد لإم، وصارت الأمور بدون موجة من الاعتقال.

وبعد مرور يومين على وفاة الطالب محمود سامي، زميل إم، نظمت إم مظاهرة أمام المشرحة بعد تأخر تقرير الطب الشرعي، ونشرت دعوة

على مواقع التواصل الاجتماعي لضمان أكبر عدد ممكن من الناس وانضمامهم للفعالية، فتعاطف معظم الناس مع الامر وأعلنوا تضامنهم بشكل أو آخر عبر الشبكة الإلكترونية، ولكن كان هناك بعض الاستثناءات أعجبهم كان عبد الرحمن، وقبل انطلاق الفعالية بعدة ساعات فتحت إم شبكة التواصل الاجتماعي لاكتشاف مستوى الإقبال المحتمل، ووجدت نسبة المشاركة قد تكون عالية، لكن في الوقت حينه تفاجأت بعبد الرحمن يكتب أن محمود سامي تم القبض عليه لحيازته المخدرات، وبالتالي هو كافر ولا داعي لكل هذه الضجة على شخص دمه كان مستباحاً في الأساس، فهذه رحمة الله عليه. صدمت إم من التشدد الذي وصل إليه، ولم تستطع أن تكبت غضبها، فشنت عليه هجوماً حاداً وكتبت: عفواً، الحياة حق للجميع، وليس لك أي صفة إلهية لتتكلم على من يستحق الحياة ومن يستحق الموت، وفيما أعتقد أن الله لا يحتاج لك للدفاع عنه أو التكلم بإسمه. وأنتم من تتكلمون باسم الدين واسم الرب وتحاولون تقمص أدوار الملائكة على الأرض، وأكثر قبحاً من الشياطين، كفوا عن كلامكم وارحمونا من عقولكم الفارغة. وفي الحقيقة أنا أشعر بالشفقة كلما أرى شيخاً أو داعية على التلفاز، أو في المسجد يعبث بعقول الشباب ويضللهم، فالأمر ليس ذنبكم، بل ذنب من ترككم بجهلكم وعودكم على سماع الكلام والعمل به قبل أن تزنوا منطقه وتتحققوا من صحته، أتمنى أن تتعظوا وتفيقوا!

كتبت إم هذه السطور، ثم غادرت إلى المظاهرة لتكتشف غدر شبكات التواصل الاجتماعي، فرغم أن نسبة التفاعل مع الدعوة التي أطلقتها عالية، لكنها لم تعكس الواقع على الإطلاق، فكان هناك أعداد قليلة، لا تتعدي العشرين فرداً، واقفة أمام المشرحة بلافتات وتهتف هتافات بصوت خافت، وحولهم حلقة أمن مركزي بزيهم الأسود تبدو كأنها على وشك أن تبتلعهم. لم تفقد إم الأمل، وقادت الهتاف ضد

مصلحة الطب الشرعي ووزارة الداخلية. وعندما عادت إلى البيت وهي تخفي قهرتها على غياب العدالة في قضية محمود سامي، فكرت إم أن تفتح شبكة التواصل لكي ترى رد عبد الرحمن، الذي لم يتبقى شيئاً في علاقتهما إلا العداوة، لكن عدلت عن الأمر لكي تتجنب نقاشاً لن يصل إلى شئ. ترددت أكثر من مرة، لكنها في النهاية إستسلمت للفضول، ففتحت الشبكة لتجد أن عبد الرحمن قد شطبها تماماً من قائمة أصدقائه، ولم تعد علاقتهم الافتراضية قائمة، مثلها مثل الواقعية، فحزنت إم على العلاقة الضائعة، لكنها كانت تعلم أنه من المستحيل أن تستمر.

****

على عكس ما اعتقدت إم، لم يكن عبد الرحمن قد إنضم إلى الجماعة التي يشكلها أصدقائه في الجامعة قطً، ولم ينضم إلى أي جماعة أخرى، فقد كان عبد الرحمن أذكى من ذلك، وعندما حدثت المشاجرة الأولى بين عبد الرحمن وإم، أدرك خطورة كلامها رغم إيمانه الكامل بالتنظيمات.

وعبد الرحمن شخصية مثيرة للاهتمام كما تخيلت إم أول مرة رأته فيها، قرر عبد الرحمن أنه عندما يدخل الجماعة سيصطدم بالناس في النقاشات الفقهية والأمور الدينية لا محالة، وبمبدأ السمع والطاعة سيكون مجبراً على القبول برأيهم وإلا سيطرد، وبالتالي قرر أن يتشدد بمفرده، لكنه سيساند الجماعة عندما تتفق الآراء، وسيصمت ولا يصطدم بهم عندما تتعارض، ففي كل الآحوال الإسلاميون لا يزالون قلة ولا داعي للصدام أوقات الضعف، وقد تعامل عبد الرحمن مع الأمر بدهاء، وكان يوضح إيمانه وتشدده للجميع، ويعلنه بصراحة تامة على الشبكات الاجتماعية والمواقع، لذلك انخدع البعض في أنه جزء من كيان أكبر، وكان يعلم جيداً أن الأمن سيلاحقه بمجرد إعلانه عن توجهه، لكن في الوقت ذاته أقنع نفسه أننا في يومنا هذا، وفي ظل الحرب على الإسلام السياسي أول خطوة للجهاد هي الإعلان عن وجود من يسعون للخلافة مرة أخرى

والافتخار بالديانة، فكل المتاعب التي قد تنتج عن هذا مجرد إختبار من الرب ستأتي ثماره لاحقاً، وكان مازال هناك جزء من عبد الرحمن يشكك في كل هذا، ويعيد كلام إم في ذهنه مراراً وتكراراً، لأن في الواقع كانت هي الوحيدة التي واجهته برأيها الصريح، فالآخرون يخشون من أن يقولوا رأيهم في تصرفات صديقهم فينفجر برد فعله.

لم يلتزم عبد الرحمن بحضور مسجد واحد ولم يتبع شيخاً واحداً، فكان يجول المدينة يوماً بعد يوم، من مسجد إلى مسجد، حتى يشتت أي جهة تتبعه، ويقلل من إحتمالية أن تربطه الجهات الأمنية بتنظيم معين. كان عبد الرحمن يمثل حالة خاصة، وكان مهتماً بفداء الإسلام والنضال من أجله، وفي الوقت ذاته يخشى العواقب، يخشي أن يسير في درب ليكتشف إنه الدرب الخاطئ، بعد أن ضيع جزء من عمره في السير. ولكن في الوقت ذاته، كيف سيبرر موقفه في المستقبل إذا تنحى عن اراءه ثم إكتشف أنها كانت على حق، سيشعر وقتها بالخيانة، والذنب والعتاب. ماذا سيحدث إذا قابل الله في الاخرة وسأله عن إيمانه بمبادئ الإسلام، لكن عدم إيمانه بربه بما يكفي ليسلك مسلك فداءه ولا يهتم بالعواقب الدنيوية. وجد عبد الرحمن أن المعادلة التي ابتكرها في أن يردد كلام الأصوليون ولا يصبح جزء منهم هي أنسب شئ حتى تتضح الأمور.

الأمن والأمان

لم تكن الحياة بالسهولة التي اعتاد عليها طارق عندما تخرج من الجامعة، قد انتهى وقت اللعب والمزاح، ووالده قدم إليه كل الفرص التي يستطيع أن يقدمها، وإدخاله أمن الدولة بوزارة الداخلية هي أثمن هدية ممكن أن تعطيها لضابط شرطة، ولكن من هذه النقطة على طارق أن يجتهد ويتعلم ويبذل الجهد لكي يحصل على الترقيات في هذا الجهاز الوعر ويصبح له مكانة ووضع خاص، فوالده لن يعيش إلى الأبد لكي يتعايش ويكبر على نفوذه، جاء الوقت أن يستغل نفسه وقدراته في تحقيق شئ بدلاً من أن يستغل نفوساً وقدرات أخرى لتحقيق مكاسب شخصية. (فكرت كثيراً في أيام دراستي، عندما كنا ندرس بالمستشفى فنرى أرواح تغادر أجسادها، وأجساد تتألم، وأجساد تنتفض، لماذا تحمل كل حياة صفحة ختام؟ لماذا يكتب علينا في الصفحة الأخيرة «تمت»، كما يكتب في القصص مع انتهائها؟ لماذا لا نعيش إلى الأبد معاً؟ ليعيش طارق في أحضان والده، يرتقي بدون الحاجة إلى الصعود، يستيقظ ليجد الحياة مفروشة أمامه بالخيرات، يتحول إلى واحد من هؤلاء الناس الذين يذهبون إلى مشاغلهم ليحتسوا الشاي ويعطون الأوامر الفارغة ثم

يعودون إلى بيوتهم. لماذا يجب أن يدفن الابن أمه، ولا ينعم بصحبتها إلى دهر الدهور؟ لماذا يضطر الأب أن يدفن ابنته وهي لم تقبل على الحياة بعد؟ ولماذا يموت بين أيدينا أشخاص لا يوجد لهم شخص يدفنهم، فيتخذ وظيفة تعليم الطلاب في المشرحة بدل أن يمكث في تربته؟ .. كم كنت ساذجاً وبريئاً أيام الدراسة؟ أم كنت فقط مازالت أحتفظ بالإنسانية التي نتعلم أن نفقدها مع تعاقب الجثث تعاقب الطوارئ وتراكم الجثامين في المشارح؟)

كان طارق يرافق النقيب صلاح سليمان قبل القيام بإحدي المهام الروتينية في أمن الدولة، وكان النقيب صلاح يشرح له نظرية مهمة بخصوص الشعب المصري (إتضح فيما بعد أنها نظرية شائعة في المجتمع المصري)، ولم يفهم طارق السبب الذي دفع النقيب صلاح يشرح له النظرية، فالنقيب صلاح من الشخصيات التي كان طارق دائماً يصفها بغريبة الاطوار، فلا أحد يفهم تصرفاته عموماً، فهو لا يميل إلى الثرثرة خارج العمل، ولكن في الوقت نفسه صاحب عقل طائش، فليس من الغريب أن يتصل النقيب صلاح بأحد أصدقائه في الفجر ويوقظه ليطلب منه أن يذهب معه لأكل الأرز باللبن، أو يجد أن عنده يومين إجازة فيذهب إلى المطار، ويشتري تذكرة إلى أي دولة لا تحتاج إلى تأشيرة ليقضي اليومين فيها.

ولكنه وقت العمل يتحول إلى شخصية مختلفة تماماً، كأن بزته الشرطية تعطيه شخصية أخرى رغم أن ضباط قطاع أمن الدولة عادة يرتدون ملابس مدنية - فيميل إلى الثرثرة، ويستلذ في سرد خبراته في السلك البوليسي وإنجازاته التي لم يستطع أن يقوم بها أحد، ودائماً يحكي عن النساء الفاتنات اللواتي يفعلن المستحيل للوصول إلى قلبه بمجرد معرفتهن أنه شرطي، وفي الوقت نفسه هو بالفعل رصين في عمله، ويعتبر من أكثر الناس كفاءة في الجهاز، فبالفعل له إنجازات يحكي عنها ولا

يختلقها، ولأنه يعلم جيداً أنه يحظى باحترام الجميع مهنياً، فدائماً يشكل النظريات المختلفة والعجيبة عن الواقع الذي يواجه الجهاز آنئذ.

وكان يحكى النقيب صلاح لطارق أن الشعب المصري لا يمكن أن يعيش إلا تحت حكم عسكري يضرب بيد من حديد، شرحاً له أن تكوين الشعب المصري تكوين همجي بطبعه، فإذا أخدت مجموعة من أي شعب آخر ووضعتهم أمام مخبز وطلبت منهم أن يقوموا بشراء قطعة من الخبز سينظمون في طابور وينجزوا المهمة في دقائق، أما المصريين فسيتدافعوا ويتعاركوا ليصلوا إلى منفذ البيع، وسيسفر الأمر عن جرحى وقتلى وإذا تدخل صاحب المخبز لينظمهم ويفض العراك سيضربوه، ولا أستبعد أن يختفي أحد الزبائن ليعود بأصدقائه ليقوموا باشعال المخبز تماماً.

ثم قال النقيب صلاح لطارق: إن فكر في أي سيناريو من الحياة اليومية وقام بهذه المقارنة سيجد أن النتيجة مماثلة، لذلك يرى النقيب صلاح أن هذا الشعب فوضوي بطبعه، ولأن الجهل متفش في عقول الناس، تصبح مهمة الدولة أن تكون عسكرية وتسير أمور الناس وتوجههم، فإذا أعطتهم فرصة للتفكير والاختيار كما هو الحال في الغرب، سيهلك الجميع.

ثم استمر في شرحه وقال لهذه الأسباب تتخذ الدولة الان إجراءات استثنائية مع المواطنين، لأنه بدون آليات، مثل: قانون الطوارئ، ومحاكم أمن الدولة، واستغلال المحاكم العسكرية للمدنين لضبط الفوضويين سينهار المجتمع تماماً.

كان طارق يجلس في صمت تام في سيارة الشرطة، وهو يمكث في أحضان الكرسي المجاور للسائق، ويهز رأسه كلما نظر إليه النقيب صلاح، كان طارق لا يزال جديد في الجهاز ولم يكن له تجارب كثيرة بعد، فكان يتعامل مع الكل كتلميذ، ويأخد كلامهم بجدية تامة وبدون تشكيك، ولم يفكر طارق من قبل في طبيعة الشعب المصري، لكن الأكيد أنه منذ

طفولته يحمل البغض تجاه العامة من الناس، فكان دائماً منغلق في حلقة صفوة المجتمع بين ردهات وأروقة القصور، وكان يكره الأيام التي يضطر أن يتعامل فيها مع ناس من خارج هذه الدائرة، فاليوم الذي يأتي كهربائي أو يذهب إلى ورشة تصليح السيارات كانت أياماً تعيسة، لكن لم يفكر من قبل قطً عن سبب هذا البغض الذي يحمله تجاه كل من ليس من دائرته الصغيرة، والآن فسر النقيب صلاح كل شئ له، وكان طارق يتعامل مع مهنة الشرطة على أنها خدمة اجتماعية من نوع خاص، فيري أنه من الناس التي تبقى الدولة المصرية على قيد الحياة، ومع نظرية النقيب صلاح اتضحت الصورة، وتأكد من رؤيته.

فجأة انتهت الحوارات، الحوار أو الدرس الذي ألقاه النقيب صلاح، والدرس الذي دار في وجدان طارق، وتوقفت السيارة في شارع رئيسي بأحد الأحياء التي يعتبرها طارق من الطبقة المتوسطة، لم يتذكر طارق السبب الذي جاء له هذا الشارع من قبل، ربما بعثه والده ليستلم أو يسلم شئ في إحدى عقوباته، لكن الأكيد أنه أتى من قبل، لأنه تذكر الشارع رغم عدم شروق الشمس كاملة بعد. وجد طارق النقيب صلاح يقول له: « يلا كفاية كلام عشان نشتغل»، فنزلوا من السيارة ووجد أربعة مخبرين في زي مدني، ثم قال أحدهم: «هو في الدور التالت يا ريس»، وانتظر أحد المخبرين بجوار السيارة، وصعدت البقية إلى الدور الثالث، لم يحاولوا دق الباب أو الجرس، بل تم كسر الباب على الفور بآلة حديدية، وبدأوا يفتشون بشكل وحشي، حتى دخلوا غرفة نوم فوجدوا شاباً نائماً في سريره، فصاح أحد المخبرين «هو ده!»، فتم سحبه من سريره وهو يصرخ بكل قوته كأنه يشرخ حنجرته ويقطع أحباله الصوتية لكي ينقذه أحد، ووسط كل هذا كانت الضجة قد أيقظت أمه وأباه، فأخذوا يولولون ويصيحون في طارق ليترك ابنهم، فتدخل مخبر على الفور وصفعهما، وأدخلهما غرفتهما. وصاح النقيب صلاح في المخبرين لكي يأخذوا كل متعلقات الشاب من كتب وأجهزة إلكترونية من غرفته، وكان الشاب

بين يدي طارق، وهو يقوده إلى سيارة الشرطة عندما لكمه النقيب صلاح وهو يصيح فيه:

- اسمك إيه ياض؟

قال الشاب بصوت مجروح وهو على وشك أن يغشى باكياً:

- عبد الرحمن يا فندم ..

فقال طارق بسخرية شديدة وهو يلكم عبد الرحمن في ظهره:

- لا يا راجل!.. تصدق ماكناش نعرف!.. اسمك الثلاثي إيه ياض؟

فقال عبد الرحمن بإصرار لكي يحاول أن يتفادآ أي ضربة جديدة:

- عبد الرحمن محمد عبدالقوي يا فندم

****

كان عادل سائراً في طريقه إلى الورشة في الميعاد الأسبوعي لتنظيف المكان قبل أن يأتي الأسطي ويبدأوا في استقبال الزبائن، عندما رأى منظر الشاب وهو يتم إهانته من قبل الشرطة فتوقف عن السير، وحاول أن يستكمل لكن رجليه لم تطاوعه، كأنها تسمرت في الارض، أو تكونت حولها مكعبات أسمنتية تثبته مثل عمود النور. فالشاب كان يضرب ويسب بأفظع الشتائم على بعد أمتار منه، وهو واقف، مهما كانت الجريمة التي ارتكبها الشاب لا يصح أن يهان هذه الإهانة، فهو يعلم جيداً افتراء الشرطة في هذه البلد ويسمع قصصاً منذ طفولته ..، ورأى عادل نفسه يتقدم ويخلص الشاب من بين يدي الضباط، ويرد لهم الاهانة التي أهانوه بها ... ولكن فجأة اخترق الصياح أذنيه وانتشله من خياله، والضابط يقول: «بتبص على إيه ياض انت؟ يلا من هنا بدل ما نخدك معاه»، فأدركت رجلاه المتاعب التي قد تسببها له، وبدأت تسير وحدها بدون أن يعطيها الأمر، وصورة الشاب الذي يضربه الضابط، ترافقه وتسيطر عليه.

عادل

لم يعتد عادل على الاحتكاك بالأمن .. لا، لا .. لم يعتد عادل على الاحتكاك بأحد، وربما من الأنسب أن نلوم الظروف التي أدت إلى هذا، ولكن لا يوجد ضمان أن تغيير الظروف سيغير النتيجة، وكانت حياة عادل مثل طريق وعر، بها منحدرات ومطالع لا تعد ولا تحصى، وحتى أرضها غير متساوية وغير مرصوفة، لكن هذا حظه أو قدره، أو شئ آخر حسب معتقدات كل شخص. لا أعتقد أننا نستطيع أن نصف حياة عادل على أنها «طبيعية»، حسب معايير المجتمع التي لا أعرفها، وفي الواقع لا نستطيع أن نصف حياة أحد على أنها «الطبيعية»، ولا أعلم من أول شخص قرر أنه «طبيعي»، ولا أعلم ما هي صفاته، لكن ما أعرفه هو أنه لا يوجد شخص آخر «طبيعي»، لأنه لا يوجد شخص يماثله. إذاً الجميع غير «طبيعي» بطريقته الخاصة، أو إذا أردنا - إن انتابتنا النرجسية - فكل شخص يعتبر نفسه الوحيد «الطبيعي» على وجه الأرض وأن بقية البشر غير «طبيعيين».

حقاً إنها كلمة مخادعة لم أفهمها أبداً، فالبني آدميين لا يولدون في مصنع على نفس خط الإنتاج طبقاً للمعايير العالمية، وربما يكون هناك

بعض الثوابت التي تعطينا الملامح الأساسية لطبعنا وتفرقنا عن الكائنات الأخرى. الاكيد على كل حال إن عادل لم يكن «طبيعياً» أو كان «طبيعي» إلى درجة جعلته الوحيد «الطبيعي».

ولد عادل في إحدي القرى الريفية، في عائلة متواضعة جداً، وكان والداه قد خاضا معركة طويلة وعجيبة لكي يتزوجا، وكان والده يعمل في مصنع الغزل والنسيج في طفولته، وظل كل سنوات شبابه في المصنع يقبض بضعة قروش في الشهر، ولم يكن ذلك يكفيه بتاتاً، فكان يتسلل إلى ورشة الميكانيكا في المصنع ويأخذ (يسرق) قطع غيار الالات ليبيعها للحدادين، ولم يعتبر يكن أفعاله نوعاً من السرقة، فرأى الامر من منظور آخر، فبرر الأمر بأن أصحاب المصنع لن يتعثروا في شراء قطع غير التي يأخذها، فثرائهم يشبع عائلات وعائلات، أما هو، الصنايعي الفقير، فلن يعيش إذا لم يجد الطعام، إذاً عندما يأتي الأمر إلى الحياة والموت، والإبقاء على قيد الحياة ليس له ثمن، وفي الواقع كان يتعجب من الناس الذين لهم ثراء طائل ويخفوه خلف أسوار وحراس وخزائن، فدائماً كان يحلم بأن يبني مصانع ويقتني مزارع لإبقاء المحتاجين على قيد الحياة، لكن بالطبع لم يتحقق حلمه، وتبخر تماماً عندما أمسك صاحب العمل به متلبساً، وكان سيحبسه لولا العشرة وتاريخه الناصع في المصنع، لكنه لم يكن بالرحمة الكافية لكي يبقيه في العمل، ولم يكن هناك مصانع أخرى في المنطقة، وإذا عمل في الحقل لن يقبض مثلما كان يقبض في المصنع، وكان الفقر يسرق شباب والد عادل، ويعطل حماسه وأحلامه المتواضعة، لكن لم يكن هناك شئ في وسعه.

عاش والد عادل فترة من فقدان الأمل في الحياة وظل عاطلاً، وكانت عائلته تحتاج إلى كل قرش يقتنيه، فقرر أن يرتحل إلى المدينة لعله يصل إلى شئ هناك، ولما وصل المدينة جال فيها أربعة أيام بحثاً عن عمل، ونام على سلالم المساجد وفي الحدائق العامة حتى وجد عملاً في محل عصير

قصب السكر، وكان هذا الحدث أبعد من الحلم بالنسبة له، فحرص على إرسال المال لعائلته كل شهر، وبدأ يغوص في أوحال المدينة، ويكتشف تفاصيلها وحذافيرها، وبدأ يكون معارف مع الوقت، وأصبح له أصدقاء، وعندما عرض عليه أحدهم أن يعمل في تنظيف إحدى المكاتب مرة في الأسبوع حتى يتيسر حاله مالياً، لأنه
كان معروفاً بأنه يعول عائلة ليست صغيرة حجماً.

ومرة بعد أخرى بدأ يتعرف على ابنة حارس العمارة التي كان ينظفها، قابلها على سلم العمارة مرة، وطلب أن يقترض منشفة مرة، وهكذا، ولم تكن البنت من أجمل الجميلات، كان وجهها متواضع، لكن عينيها تحمل شيئاً ساحراً، شيئاً يجعل الشخص يريد أن يتكلم ويقترب منها، أو ربما كان يجعل والد عادل فقط هو من يريد أن يتقترب إليها، وكأن عينيها مصنوعتان له ربما، مصنوعتان لسحبه في دوامة الحب، ولم يحاول أن يقول أي شئ إلي لها، بل فاجأها عندما ظهر في ليلة لن تنسى، وطلب أن يقابل والدها ليتزوجها على الفور، إنبهرت بشجاعته والده وبالمفاجأة التي صنعها، إلا أن القرار لم يكن بيدها، وقد أجاب والدها بالسلب. فمنذ اللحظة الأولي التي رآه فيها لم يرتح إليه قط، وشعر أنه من هؤلاء الفلاحين الذين يأتون إلي المدينة ليفسدوا الحياة على سكانها، ويفرضوا تقاليدهم الجاهلة، وكان هذا رأياً عجيباً لشخص من أصول الفلاحين، حتى وإن كان ولد وعاش في المدينة حياته كلها.

كان والد عادل ووالدته يمرران الرسائل لبعضهما في أوقات وأماكن متفقاً عليها، لأن فكرة أن يتقابلا كانت محفوفة بالمخاطر، ولم يطول الانتظار، فقد مات والدها بعد سنة تقريباً وتزوجا بعد ذلك، ولم تكن الحياة سهلة بالنسبة للعائلة الجديدة، لكنهم تعاونوا لتيسير أمورهما، حتى عاد في مرة والد عادل من العمل متأخراً وكان قد فقد أحد أصابعه، حيث إلتهمته ماكينة عصر القصب أثناء تنظيفها، ولم يستطع أن ينقذه.

ومن ثمَّ لم يتعامل مع الماكينات بعد ذلك اليوم، بل كان عندما يرى ماكينة يتذكر الحادث، الدم، الالآم، وكل شئ، فيرتعد، ووجد بعد ذلك وظيفة في إحدي مزارع قصب السكر فعاد الى الريف، وهناك ولد عادل.

ومثل أي والد أراد، والد عادل أن يعطي ابنه كل ما لم يستطع أن يقتنيه في طفولته، فلم يحرمه من شئ، أدخله المدرسة، وأعطاه الملابس الجديدة، والكتب الجديدة، وكان يأخذه مركز الشباب ليلعب الكرة، لكنه في الوقت ذاته لم يرد أن يصبح ابنه من الناس التي تنكر النعمة، وفي مرة استدعاه وهو مازال في الابتدائية، وقال له: لا تعتقد أن كل الرخاء الذي تعيشه بلا ثمن، أترى هذا؟ وأشار إلى إصبعه المبتور ثم أكمل، هذا ثمن ما نملكه، وبالنسبة لطفل لم يتعدي العشرة أعوام كان الكلام في شدة الوضوح، وكان الدرس مستفاداً، فكان عادل يتعامل بحرص مع كل ما يعطيه له والده، ويقدر قيمته.

أخذ عادل شهادة الإعدادية، وكانت فرحة والده لا تصدق، فابنه سيصبح أول متعلم حقيقي في عائلته، ولن يعاني أحد من بعده، ولكن لم تطل الفرحة حيث توفي والد عادل آثر حادث سير في عطلة الصيف الفاصلة بين الإعدادية والثانوية، فضاعت أشياء كثير مع ضياع جسد والده، ضاع الصبر والانتظار الذي خاضه مع والدته عندما كانوا ينتظرون لحظة الزواج، وضاعت أساطير الشقاء التي جاءت مع محاولة الارتقاء على السلم المجتمعي، ومثلما كان عادل أول من شعر بخيرات والده عليه عندما أصبح حالهم مقبولاً، فهو أول من حمل المسئولية عندما خان الموت والده.

لم يعد لهم أحد في الريف، وانتقلوا جميعهم إلى المدينة مرة أخرى، فعلى الأقل لهم عائلة والدته هناك، وكانت الحياة في المدينة مكلفة أكثر، لكن كان هناك احتماليات أكثر لعادل أن يجد وظيفة ليساعد والدته أن تعول اخواته، وضاع حلم الثانوية العامة، وتبدلت المسارات في لحظة،

فاصطدم عادل بحياة جديدة، حياة الشقاء التي رآها والده من قبل، وانتقل عادل من وظيفة لأخرى في محاولة للعثور على شئ يركز فيه مستقبله، فعمل في مطبخ إحدى المطاعم للمأكولات السريعة، لكن تم فصله بعد تأخره عن العمل، وربما كانت هذه افضل فرصة اتت إليه، واشتغل بعد ذلك صنايعي رخام، وأخذ يشارك في تقطيع الرخام وتركيبه في البيوت مع الأسطى سعد، ولم تكن يده تتحمل الحرفة - على حد كلام الأسطى سعد - فتحول عادل إلى ورشة «الدِش» للأسطى سيد، والتقط حرفة تصليح أجهزة القنوات الفضائية وتركيبها بسلاسة، فأصبح جزءً لا يتجزأ من الورشة.

منذ وفاة والده تعلم عادل أن لا يحتك بأحد، فالعمل في صمت وبدون مضايقات هو أسلم طريقة لجمع الأموال والصرف على العائلة. وعندما بدأ يعمل مع الأسطى سيد بدأت عائلته تستطيع أن تعيش وتأكل مرة أخرى، فأقنع والدته أن تترك عملها وتعتمد عليه، فإن قطع مصدر دخله الآن ستجوع أمه وإخوته. لذلك عندما وقف أمام عبد الرحمن وهو يرى الافتراء والبلطجة بعينيه لم يفتح فاه، خوفاً من قتل حريته التي لا محالة ستقتل عائلته.

من ظلمة إلى نور

قُبض على عبد الرحمن وقت الفجر تقريباً من بيته، ظل مشتتاً ولم يفهم سبب هذه العداوة التي يحملها طارق تجاهه (بالطبع لم يعلم اسمه آنئذ)، في البداية كان مرتبكاً وتخيل أن هناك التباساً من نوع آخر، فهو لم يرتكب أي شئ يجعله خارج عن القانون، لم يقتنع أن ميوله الاسلامية هي سبب كل هذا، فتعجب من كم العداء الذي تحمله الشرطة لأصحاب الايمان، ولم يتخيل نهائياً أن ما سيحدث معه سيكون بهذه الوحشية، فرغم أنه سمع قصصاً وقرأ شهادات لمعتقلين سابقين، إلا أنه لم يتخيل نهائياً أن الأمر بهذا السوء، وفكر أحياناً إن الآلام تجعل الشخص يرى أشياء لم تحدث، فربما تكون الناس تبالغ، لكنه أدرك متأخراً بعد أن رأى وشعر بنفسه أن كل كلمة حقيقية، فليس من رأى كمن سمع.

وبعد أن قيدوا يديه وقادوه إلى سيارة الشرطة، قاموا بوضعه في الجزء الخلفي من السيارة مع المخبرين، فقاموا بضربه ضرباً مبرحاً مرة أخرى، ثم عصبوا عينيه حتى لا يعرف المكان الذي سيأخذوه اليه، ولم يكن من الصعب التخيل أنهم سيأخذونه إلى مبني أمن الدولة، وطوال الطريق أخذ يفكر في الأسئلة التي ستوجه إليه، فهو لا ينتمي إلى أي

جماعة لكي يشي بهم، وفي حالة أن وجهوا إليه الأسئلة المعتادة عن التنظيمات سيصبح في مأزق، فهو لا يملك معلومة واحدة ليقولها، فأقنع عبد الرحمن نفسه أن لا يسبق الأحداث، وأن كل هذا يحدث لتقربه من ربه، فبالتأكيد سيكون أجره في الآخرة عظيماً، ثم يعود ليقول لنفسه: لماذا تفعل كل هذا من أجل عالم أنت لا تعلم بكامل اليقين أنه موجود؟ حاشا لله فمن أكبر الاثم أن تشكك في الرب، فأسكت نفسه وحاول أن يهدأ بترديد بعض الأدعية حتى يفهم مصيره، فالمسألة مسألة وقت.

وفجأة توقفت السيارة، وإقتربت ساعة المصير، أنزلوه بعنف من السيارة، ثم صاح الضابط «خدوه الغسالة!»، فدفعه شخص أمامه، وقاده إلى غرفة فارغة، وهناك تم تعريته تماماً، حتى أصبح الساتر الوحيد عليه هو ما يستر عينيه، وخرج المخبر، وحاول أن يصرخ عبد الرحمن لعل أحداً ينجده لكنه لم يجد رداً بطبيعة الحال، فجلس بجسده العاري على الارض المثلجة، تخيل أن الأرضية مصنوعة من السيراميك، أو شئ مثل هذا، وبعد فترة دخل شخص وفك له يده وما يغطي عينيه، وكانت غرفة صغيرة مستطيلة، بدون نوافذ، لمبة وحيدة تبعث نوراً ضئيلاً، وكرسي واحد يجلس عليه الرجل الذي قاده من غرفة نومه إلى سيارة الشرطة وضربه طوال الطريق (طارق)، ويقف بجانبه رجل آخر يحمل إناء، ولم يطل الوقت قبل أن يتم سكب الماء بأكمله على جسده العاري، وقال طارق له بازدراء شديد:

- ناوي تعترف على الجماعة ولا هتضيع وقتنا؟

رد عبد الرحمن في انكسار شديد:

- جماعة إيه يا باشا؟

فقام طارق دون أن يتفوه بكلمة وغادر الغرفة هو رفيقه، وكانت هذه هي أول مرة يقوم طارق بالتحقيق مع متهم بمفرده، وكان دائماً مشاهداً، أو مساعداً، ولكن لم يقد مهمة مثل هذه من قبل، وإنتابته هواجس كثيرة وجلس في مكتبه لساعات يفكر في الأمر. هل يستحق

هذا الشخص هذه المعاملة والإهانة؟ تخيل دولتك بدون أمن الدولة، هل سيكون هناك دولة في الأصل؟ أم ستتحول إلى عصابات وجماعات؟ ألم يكن عبد الناصر على حق عندما واجه الإسلام السياسي بالحبس؟ إذاً ماذا تغير؟..

بدأ صوت بداخل طارق يقول له: إن ما تفعله هو واجب وطني عليك وعلي زملائك، فأنت تحملت مسئولية حماية الوطن، فلا تخذل مصر بسبب مجموعة من الغوغاء لا يعرفون دينهم... هل يجب أن يتألم الناس من أجل أن يعيش الوطن؟ أليس هناك طرق أحسن من هذه الطرق؟.. تذكر على الفور النقيب صلاح وهو يشرح له أنه إذا لم نضرب بيد من حديد سنغرق، ثم عاد يتعجب من نفسه ويقول: ألم يقم والدك بمثل هذه المهام فى شبابه؟ إن كانت خاطئة بالتأكيد لم يكن سيشجع ابنه ويدفعه إليها .. إذاً ما المانع أن نسير على درب الوالد؟ .. أفلت طارق نفسه من الحوار المزعج الذي كان يدور في عقله مع وصوله إلى هذه النقطة، وأقنع نفسه أنه أحياناً من الأفضل أن لا نفكر، فتصبح الحياة أكثر راحة.

أما عبد الرحمن فتركوه في الغرفة لمدة لا يعلمها، فهو لم ير الشمس بتاتاً، ولم يستطع أن يحدد الوقت بأي شكل، وظل يجلس عارياً تماماً على الأرضية المثلجة، وكلما بدأ أن يقع في النوم دخل شخص ملثم وأيقظه، كأنه متربص به، ولم يدخل اليه أكل إلا مرات قليلة، فمع دخول الشخص الملثم يطلب منه أي شئ لسد الرمق، لكن لم يرد، والمرة التالية جاء بنفس إناء الماء وسكبه على جسمه العاري ليعاقبه، وشعر عبد الرحمن إنه ربما مر يومين أو ثلاثة أو ربما مر شهر على وجوده في الغرفة، لأنه لم يحظ بدقيقة نوم وأصبح متعباً جداً، وبدأ سقيع الأرض يؤثر عليه، وأنفه بدأت ترشح، وحرارته تزيد، ولم يكن هناك مرحاض، فبدأ يتبول ويتبرز في ركن الغرفة، ولم يهتموا، بل تركوه يعيش في مخلفاته...

(لحظة .. لحظة .. أشعر أني قرأت هذا الكلام من قبل .. لا ليست شهادات قديمة للمساجين .. الاعتقال وقت الفجر .. تعصيب الاعين .. خلع ملابس المتهم وإبقائه عارياً .. غرفة بلا نافذة .. ضوء قليل .. منع المتهم من النوم والأكل .. تشتيت إحساسه بالمكان والوقت .. سكب الماء باستمرار .. التعذيب النفسي!.. إنه كتيب آل كوبارك (kubark manual)، كتيب أصدرته وكالة المخبارات المركزية في الستينات عن كيفية استجواب المتهم بأكثر شكل فعال، وكانت أول مرة يتم الاعتماد فيها على الجانب النفسي للمتهم، وليس الجسدي، وتم رفع السرية عن الكتيب بعد سنوت طويلة، وواضح أن محتواه لم تنتهي صلاحيته بعد).

لكن أخذت الأمور تحول لم يذكر في هذا الكتيب، فجأة دخل شخص وهو يركض وأعطي عبد الرحمن ملابس ليستر نفسه، ثم عصب عينيه ووضعه في سيارة مع مجموعة أخرى من الناس، ولم يستطيعوا الكلام على الإطلاق، وكل فترة يتوقف ويسمع شخص يخرج من السيارة، ثم جاء دور عبد الرحمن فسحبوه خارج السيارة، وضربوه وغادروا بدونه، ولم يعد عبد الرحمن معصوب العينين، فوجد نفسه في صحراء جرداء بجانب طريق، تمر سيارة عليه حوالي كل نصف دقيقة، فبدأ يمشي في أي اتجاه لعله يفهم موقعه على الخريطة، وأثناء سيره على الرمال بقدمين حافيتين أخذ يعاتب نفسه على ما حدث بينه وبين إم، فشعر أنه كان مخطئاً ومتسرعاً عندما وصف زميلها المتوفى من التعذيب بالكفر، فكان من الممكن بعد أسابيع فقط أن يكون مثل زميلها، ووقتها إذا قالوا عليه مدمناً لن يقف في صفه أحد، وإذاً عليه أن يسامحها على كل تجاوزاتها التي صدرت عن انفعال، ويجب الاعتذار اليها، وهذا لا يعني تحويل فكره الديني والسياسي، فهو مازال على اختلاف معها في هذه النقطة، وذلك لا يمنع من الاعتذار. ثم عاد ليفكر في الأيام التي قضاها في المعتقل، وشعر أنه كان إختباراً حقيقياً من الله، وبالفعل اجتازه، فقال لنفسه:

إذا استهدفني الامن النظامي الفاسد هكذا فبالتأكيد أنا أسير في الطريق الصحيح، ولم يمش كثيراً حتى وجد لافتة مكتوباً عليها «السويس ٥٠ كم»، فقرر أن يعبر الطريق السريع وسار في الاتجاه العكسي حتى وجد لافتة مكتوباً عليها القاهرة، فاستوعب موقعه، وأخذ يمشي حتى وجد سيارة نقل خفيف يستقلها إلى القاهرة.

وأول شئ فعله هو أن سأل على اليوم، فأدرك من السائق أنه مر على اعتقاله أسبوعان، ولم يتكلم السائق طوال الطريق، ولم يشغل الراديو .. صمت تام .. وفجأة رأى شيئاً عجيباً في نهاية الطريق، رأى دبابة جيش واقفة بعرض الطريق، فالتفت إلى السائق وقال في اضطراب:

- هو ايه اللي هناك ده يا ريس؟

رد السائق بعدم اكتراث كأنه شئ طبيعي:

- دبابة ..

- إيه اللي جابها هنا يا ريس؟

أعطاه السائق نظرة تعجب كأنه سؤال في قمة الغباء، ثم رد برد يوحي أنه لم ير غباء مثل هذا من قبل:

- ما هي واقفة هنا من ساعة ما الشرطة انسحبت من يومين ..

اكتفى عبد الرحمن بهز رأسه، فشعرأن أي سؤال آخر سيؤدي إلى كشف أمره، وكان هو مازال مرتبكاً، ولم يفهم المشهد بعد، ففضل أن لا يبوح بما حدث في الأيام الأخيرة، لكنه كان قد اطمئن قليلاً عندما تفهم من الإشارات أن مصر ليست في حالة حرب، كانت الدبابة تقترب أكثر فأكثر وتزيد علامات الاندهاش على وجه عبد الرحمن شيئاً فشيئاً، فهو لم ير دبابة في الواقع من قبل، وكان منظراً مبهراً للطفل الذي مازال يعيش بداخله، واستوقفهم ضابط جيش وطلب أن يفتش السيارة، فنزل السائق في صمت ومن بعده عبد الرحمن، وطلبوا أن يروا بطاقتهم، فلم يكن مع عبد الرحمن بطاقة، فوقف يشرح للضابط كل ما حدث له، فبعد أن

توثق الضابط من كل التفاصيل قرر أن يتركه يعود إلى منزله. (لا يعرف عبد الرحمن حتى هذه اللحظة لماذا تركه الضابط هذا اليوم، لأن كل الإشارات كانت لا توحي بالبراءة على الإطلاق، لكن ما قالوه لي أن كل أصدقائه الإسلاميين لم يتم حبسهم ذلك اليوم).

****

عاد عبد الرحمن إلى البيت والتأم الشمل مع عائلته، وشرحوا له كل ما حدث في غيابه من مظاهرات واشتباكات، واختفاء من الشرطة، ونزول الجيش، ثم عادوا ليسألوا عن كل ما حدث له وكل ما رآه، فطلبوا منه أن يبتعد عن هذه الأمور لتجنب المتاعب، ولم يستمع إلى نصيحتهم وذهب بعد عدة أيام إلى صديقه في الجامعة الذي أصبح أمير جماعة الآن، فحكى له ما حدث، فقال أمير الجماعة له: إن الكثير من الإخوة لهم قصص مشابهة، وطلب عبد الرحمن منه أن يعملوا معاً على مناهضة التعذيب أساساً فكرامة الإنسان جزء من أسس الإسلام، لكن لم يهتم أمير الجماعة كثيراً، وصرح له أن المرحلة القادمة قد تكون مصيرية، فهم يعتقدون أن فرصة إقامة الخلافة ستظهر قريباً.

عدسات في الضباب

ليس من الغريب أن يكون لكل شخص رؤيا معينة عن الواقع القائم أمام عينيه، فكل شخص ينظر من عدسات مختلفة، وأحياناً تكون هذه العدسات متسخة بالجهل، أو بضيق الأفق، أو بخلل في المنطق، وأحياناً أخرى تتمتع العدسات بنقاء فريد، نقاء يظهر ما هو خفي، ويفسر ما بين السطور، نقاء الثقافة، وبعد النظر، اللذان نفتقدهما في الأوقات التي نحتاجهما فيها، ولكن كلما مر الوقت على حدث قائم، وازدادت الاطراف المتفاعلة مع الحدث، وتعقدت الأمور، وينسى الناس الواقع الرئيسي الذي أدى إلى كل هذا.

وفي هذه الاوقات تجتاح عدسات الجميع غيوم كثيفة، نصبح مثل من يقود سيارة في صباح شاتئ ولا نري شيئاً، وكل ما نعتمد عليه هو حدسنا، ومعرفتنا بالطريق، والتأني، فإذا حدث وإضطر السائق إلى اتخاذ طريق جديد لم يأخذه من قبل، وقد يفقد صبره، وقد يخونه حدسه، وقد تكون الصدامات مؤلمة، فيقرر البعض ساعتها أن لا يأخذ الطريق أساساً، أو يسير في جزء منه، ثم يستدير ويعود خوفاً من العواقب، والبعض

سيتجنب التفوه بأكثر من العبارات الجارحة لكرامته ولن يقول: «لا أعرف» هذا الطريق، بل سيوحي للجميع أنه قضي عمره فيه هذا وأنه يعرفه أكثر من أي شخص آخر، وهو في الواقع لا يعلم شيئاً. وهناك أيضاً من سيقودون نصف المسافة ويقولون للركاب إنهم وصلوا للموقع المراد، في حين أنه لا يرى شيئاً من كثافة الشبورة، ولن يدرك أحد. وأخيراً هناك من سيأخذ الطريق بتأن، فيصطدمون أحياناً بأشياء ولا يبالون بل يستمرون، وسيرفضون أن يأخذوا أحداً معهم لأنهم لا يعلمون إذا كانوا سيصلون بالفعل، بل سيدعون كل شخص أن يكون قائد نفسه، حتى يصل أحدهم ويرسل الخريطة للبقية.

هناك إحتماليات واحتماليات لا تنتهي، فكل شخص يخترع ما يتناسب معه ليتعامل مع الأمر، وبالتأكيد الحاضر له تاريخ، والفكر والمواقف لا يظهرون من العدم، حتى وإن كانوا يفقدون المنطق تماماً، وأحياناً أستمع إلى أفكار الناس وأرى أفعالهم فأحزن بشدة أنهم يستهلكون الاكسجين الذي نتنفسه، وأشعر أن عالمنا يغرق، وهم بالتأكيد يحملون نفس النظرة لي أو ربما أسوء، وإلى أن يصبح الشخص قاتلاً متسلسلاً ليغتال كل من يعتبر آراءهم تغرقنا، فإننا في الأغلب سنضطر أن نعيش معاً، حتى وإن لم نتقبل بعض.

كانت المظاهرات تجتاح المدينة بشكل غير مسبوق والأحداث تتوالى، فغادر رئيس واتى من يحل محله، فكل شخص شكل مواقفه، وتشبث بها، وعاش على هذا الأساس إلى أن يتغير شئ. بالنسبة لإم تحولت الأمور بقوة مع حدوث هذا التغيير الجذري في المجتمع، فبعد أن كانت قد شكلت حياة ثلاثية الأبعاد تجمع بين الدراسة، والحياة الاجتماعية، والحياة السياسية في تناسق شديد، وبتناسب محكم، انقلب الأمر تماماً حيث أصبحت الحياة السياسية هي الحياة الوحيدة، وأهملت الدراسة تماماً،

ووهبت نفسها للشارع، فكانت تنظم الفعاليات والتظاهرات، وتشارك في كل شئ: تساعد في المبادرات المختلفة، وتشارك في الصفوف الأولى في الاشتباكات، وكانت ترى أن العنف مطلوب لتحقيق أهداف الشارع، حتى وإن لم يكن هو الحدث الرئيسي فهو، الوسيلة الوحيدة الفعالة في التعامل مع مصادر القوة، وفرض مطالب الشارع عليهم، فالعنف هو ما يحرك الأمور في النهاية، وفكرة إن كلما أراد الشارع شيئاً وأصبح له مطالب، أقام التظاهرات واحتل الشوارع في انتظار أحد مصادر القوة، مثل: الجيش، لينفذ المطالب بالصياغة التي تتناسب مع مصالحه كان أمراً مرفوضاً بالنسبة اليها تماماً، ولم تناد بالقيام بحرب أهلية أو شئ من هذا القبيل، لكن كل ما كانت تتمناه هو أن الناس تنتزع حقوقها ولا تطالب بها حتى تنتزعها لها جهة أخرى .. كانت تتمني أن تحدد الناس دروبها ومصائرها.

انحصرت الحياة الاجتماعية لإم في المشاهد السياسية فقط، فأصبح كل من تعرفهم هم من تراهم في التظاهرات والمبادرات، و كل من تراهم في السجون وهي توصل إليهم شيئاً من الأكل والبطانيات لتحميهم من أرضية السجن، (حتى إم تعرفت عليها أنا في إحدي الاشتباكات).

كل من كان حول إم شعر أن الواقع غيرها أكثر مما غيرت هي الواقع، كما أرادت، ولكنها لم تعترف قطً أن الواقع أكبر منها، كانت تنزل للتظاهر حتى وإن كانت هي الوحيدة التي تتظاهر، وكانت تملك صلابة عجيبة، إلا أن أصدقاءها في الوقت ذاته بدأوا يدركون تغييراً في نبرتها، ويشعرون بأن جاذبية الأحداث تشدها إلى الأسفل، وتسحب من روحها الإنسانية تماماً، فالأحداث جعلتها تتعامل مع واقع الموت بشكل عادي، كأن كل من سقط يزيد عدد الشهداء رقماً، لكي تستطيع أن تقف وتقول سقط من العدد كذا، وتندد بجرائم النظام، وهي لا تعلم شعور عائلاتهم، أو بقولٍ أدق هي فقدت الاتصال بإنسانيتها، لكن لماذا نلومها؟ لا أعتقد

أننا نستطيع أن نلوم واحدة دخلت المشارح أكثر ما دخلت المسارح، ودخلت المستشفيات بشكل يومي لتزور أصدقاء مصابين، ورأت أمهات يبكين على أولادهن بشكل متكرر يوماً بعد يوم، شهيداً بعد شهيد، حتى أصبح الدم مبتذلاً، وأصبح الموت لا يؤثر فيها، بل تحول إلى جزء عادي من حياتها اليومية، مثل: الأكل والشرب، ومن ثمَّ أصبحت إم شخصية وحشية، أو فقدت إنسانيتها الثمينة التي لا تعود بسهولة، لكنها للأسف لا ترى هذا، بل كل ما تراه هو مطالب شارع وأي شئ سيحققها، الأمر مخيف، ويجب أن ندين هذا الواقع المخيف، لكننا لا نستطيع أن نلوم إم على ما وصلت إليه، فهي لم تختر أن ترى كل هذا، وربما كان أرحم لها أن تقتلع عينيها مثل سمعان الخراز حتى لا تهلكها هكذا.

****

العجيب في كل هذا أن حياة عادل لم تتغير نهائياً، كان لا يزال متمسكاً بقراره أن لا يدخل في أي شئ قد يقطع مصدر دخله، فالتزم بمشاهدة الأحداث، ولم يشارك قطّ حتى لا يعرض نفسه وعائلته لأي مضاعفات، باستثناء الأيام التي كان فيها مشاحنات قوية واشتباكات، حيث ذهب عادل إلى الورشة بشكل عادي ومنتظم، وبما أن كل الناس كانت تتابع القنوات الفضائية لتشاهد الاحداث، كان هناك ازدهار قوي في العمل، واستطاع عادل أن يكسب بعض المال المطلوب دائماً، وأثناء الزيارات القليلة التي قام بها عادل لبعض البيوت لتصليح الأجهزة، تجنب أي مناقشات سياسية، وعندما وجد إلحاحاً من صاحب البيت أن يتكلم معه، كان يوافقه في رأيه مهما كان، لكي لا يغضبه.

****

بالنسبة لطارق كان للأحداث تأثير سلبي من نوع آخر في منظوره، وربما يرى البعض أنه تأثير إيجابي، ولم يعد هناك عمل لضباط الشرطة بعد انسحابهم من الشوارع وسيطرة الجيش، وبدأ البعض يستقيل ليبحث

عن وظائف أخرى، أما البعض الآخر فكان ينتظر مصيره مثل طارق، وجاءت التعليمات لجميع الضباط أن يسافروا إلى أي مكان بعيد حتى يتضح مصيرهم، وبالنسبة لطارق كان هذا يعني السفر إلى إحدى المدن السياحية البعيدة، للجلوس على البحر ومتابعة الـحداث، وكان طارق يشمئز من الواقع تماماً ويتمنى أن يعود الوقت إلى الوراء، فكان سيقوم بعمله أكثر قوة، وأكثر شدة ليمنع، كل هذا، كما تخيل الآن بالفعل، عندما سقطت وزارة الدخلية،- حماة الوطن - سقطت الدولة، وعاد ليتمنى أن يكون في سن والده الآن فيتقاعد ويرتاح من كل هذا، وتنتهي الحكاية، ولكن للأسف مازال مطلوباً منه أن يرى ويعيش الأحداث التي تمثل له النكسة، وكلما ظهرت سيرة الأحداث أو تظاهرات أو ثورة، أخذ طارق يسب ويلعن الأيام، وأخذ يزيد إصراره على العودة للعمل ليأتي اليوم الذي سينتقم فيه.

تحولات

مرت الأيام وتشابهت الأحداث، وتكررت بشكل لا متناه، كأن الواقع معلق في نقطة معينة لا يستطيع الخروج منها، مثل الحلقة المفرغة، تتكرر الأحداث فتأتي بنفس النتائج، لكن تختلف الضحايا من مرة إلى مرة، إلا أن ما جاء بعد ذلك لم يتوقعه أحد، ربما لأن معظم الناس اتسمت بالسذاجة في هذه الأيام، أو لأنهم كانوا مغيبين عن الواقع، لا أعلم تحديداً السبب، لكن هذا ما حدث.

وجد عبد الرحمن نفسه يتقرب من الإخوة في التنظيمات الاسلامية المختلفة مع مرور الأحداث، فوسط معركة مثل الجارية، وزنه كفرد في المجريات لا يفرق في شئ، أو هكذا ظن، ووجد أن اقترابه من التنظيمات هذه الفترة تقلل من المخاطرة عليه، فهو لا يريد أن يذوق طعم الاعتقال مرة أخرى، وإذا أحدث الآن شئ من هذا القبيل سيكون معه بعض الإخوة يشاركونه في الآمه. بالاضافة لكل هذا ومع اقترابه من التنظيمات أصبح له رأي في المناقشات وتأثير على القرارات غير الحساسة، لأن القرارات الحساسة تأتي كلها من الشيوخ الكبار ولا تناقش.

أدرك عبد الرحمن على الفور أن عليه أن يتنازل عن بعض الأشياء إذا أراد أن يكون جزءً من الحدث، وفي المقابل كان الإخوة في التنظيمات يتقبلونه ويحبونه بشكل كبير، ويعتبرونه ممن لديه بعض العلم في الدين، وصارت الأمور على ما يرام في معظم الأحيان، وتفاعلوا مع الأحداث أحياناً، وتنحوا عن المشاركة عندما رأوا أن الأمر بعيد عن مصلحتهم.

ولكن أتى اليوم الذي لم يتوقعه أحد، ولم يصدقه أحد، وأصبحت التنظيمات الإسلامية هي التي تمتلك السلطة، وفجأة وجد عبد الرحمن نفسه من المقربين للسلطة، وكان من قبل لا يحلم أبداً أنه في يوم من الايام سيستطيع أن يمسك محموله ويتصل بأحد مستشاري الرئيس، أو أحد الوزراء في حكومته، فهذا من أبعد المستحيلات من بضعة شهور فقط.

بعد فترة من الوقت أدرك عبد الرحمن أنه أصبح جزءً من القوة الحاكمة، ولم يكن هذا شئ يستوعبه بسهولة بعد أن رموه في المعتقل لأسابيع مظلمة، وبسرعة فائقة نسي عبد الرحمن اختلافاته مع كل التنظيمات، ونسي تحفظاته عليهم، ونسي كل اهتمامته الأخرى، وظهرت وظيفة له فجأة في وزارة الصحة، وبدأ يعمل مع صيدليات المستشفيات الحكومية بشكل مباشر، ثم دخل نقابة الصيادلة بشكل فعال، وانشغل بها تماماً فأصبح جزء مهم من النقابة بالنسبة للتنظيمات الإسلامية.

هكذا تتحول الدنيا بين يوم وليلة، ففجأة من كان في قاع الحدث يصبح على قمته، لكنه ينسي أن من السهل أن يسقط بنفس السرعة.
كانت أيام عبد الرحمن مكدسة بالاجتماعات والمقابلات، وأحياناً التظاهرات، فكان معتاداً أن ينزل من البيت في الصباح الباكر، ويعود في منتصف الليل، لكن لم يبال أبداً بهذا الشقاء والتعب، فكله من أجل المشروع الإسلامي، وفي نهاية الشهر يأخذ عبد الرحمن أجراً لا بأس به على كل هذا، وفي إحدي الليالي وأثناء عودته من أحد الاجتماعات إلى

البيت، رأي وجهاً يتذكر ملامحه بدقة شديدةِ واقفاً في إحدى الورش، فأوقف السير، وعاد إلى الورشة بعد أن كان تخطاها، ووقف يحملق في وجه الشاب بشكل استفزازي، فهتف الشاب من الداخل بدون أن ينظر إليه:

- أيوة يا بيه ثواني وأبقى معاك.

لم يرد عبد الرحمن وظل يبحث في ذاكرته الواسعة عن المكان الذي رأي فيه الشاب لكن بلا جدوى، أنهي الشاب ما كان بين يديه وتقدم إلى عبد الرحمن فأدرك على الفور الشخص الذي يقف أمامه، لكنه تمني أن لا يتذكر عبد الرحمن فقال في ارتباك:

- أهلاً وسهلاً يا فندم .. نقدر نساعدك في إيه؟

فرد عبد الرحمن وهو لايزال يعصر ذهنه:

- وعليكم السلام .. هو احنا اتقابلنا قبل كده؟

شعر عادل بخجل شديد من السؤال وقال:

- أيوة يا فندم، أنا اللي كنت واقف وحضرتك بيتقبض عليك.. حمد الله على السلامة يا فندم.

فانتفض عبد الرحمن في دهشة كأنه كشف اللغز قائلاً:

- يااااه .. تصدق!

فأكمل عادل كلامه في خجل:

- أنا آسف يافندم ماعرفتش أساعدك يومها..

- لا يابني مفيش داعي للكلام ده، لو كنت فتحت بقك كنت اتفرمت.

فرد عادل ولازال الخجل يسيطر عليه:

- ربنا ينتقم منهم بقى يا باشا ..

فقال عبد الرحمن كأنه يؤكد على كلامه:

- الحمد لله الناس هزمتهم وماعادش في اعتقالات ولا قتل في الشوارع.

إندهش عادل من الكلام ولأول مرة كسر وعده وقال في تعجل، كأن الكلام ينفلت منه بدون قصد:
- مفيش قتل واعتقالات!!.. هو حضرتك مش عايش معانا ولا إيه يا فندم؟
لم يتوقع عبد الرحمن هذا الرد، فحاول أن يدافع عن تياره قائلاً:
- دي أحداث فردية لبعض بلطجية النظام السابق يابني!
سكت عادل وعاد إلى داخل الورشة دون أن يتفوه بحرف آخر وهو غارق في دهشته من إصراره على إنكار الواقع، وهو لأول مرة يعترف بالواقع ويتعامل معه.

نظريات

ماركس قضى معظم حياته يكتب ضد البرجوازين، فكتب ضد نظامهم الاقتصادي، وموقعهم الاجتماعي، وسياستهم، وحتى أفكارهم، وأخذ يركز على كل خطوة تتخذها هذه الطبقة، وكيف أثرت على البرولتاريا بشكل واضح، فخلق أيديولجيا كاملة من بعده، وكون مدرسة فكر لها أتباع، وتشعبت منها مدارس فكر جديدة، فأصبح هناك من يسمون أنفسهم بالماركسيين.

من أهم الجوانب التي ركز عليها الماركسيون والماركسيون الجدد في الطبقة البرجوازية هي الأفكار الخاصة بها، فمن معتقدات الماركسيين الراسخة أن الأفكار الشائعة عادةً هي أفكار البرجوازيين، هذه الطبقة تملك الثروة الكافية لتبني مؤسسات لتطوير الأفكار الملائمة لزيادة ثرائهم، وتقديم المقترحات الجديدة طوال الوقت، وفي الوقت ذاته يملكون مصادر الإعلام الرئيسية، فتشاع أفكارهم فيها وتصبح عقيدة لشعب كامل، وحتى المؤسسات التعليمية والمدارس يملكونها، فيقومون بتربية أجيال كاملة على أساس أفكارهم ومعتقداتهم، وهذا بالطبع ينطبق على المجتمع الرأسمالي بالأخص.

أول مرة رأيت فيها طارقاً كان في أحد التجمعات في بيت صديقة مشتركة، لم أتكلم كثيراً في هذا اليوم لكني سمعت حواراً كاملاً بين صديقتنا المشتركة وطارق، جعلني أفكر في كلام ماركس والماركسيين، فعندما يتكلم ماركس عن البرجوازيين فهو يخص أصحاب رأس المال، ولا يوجد مانع أن نضم أبناء أصحاب رأس المال وبناتهم إلى المجموعة، فهم في النهاية من يستكملون مسيرة آبائهم وأمهاتهم، فإذا تخيلنا أن طارقاً ممثل من البرجوازيين، رغم أن والده لا يملك رأس المال بالشكل الذي تخيله ماركس بقدر ما يملك من سلطة، لكنه وفر لابنه حياة وسط من يملكون رأس المال من خلال عمله معهم، وإذا اعتبرنا صديقتنا المشتركة نور، التي يملك والدها أكبر مصانع أسمنت في مصر، ممثلة أخرى عن الطبقة البرجوازية، فإنني أعتقد أن ماركس كان على حق في وصفه للبرجوازيين، وكيف أن هدفهم الرئيسي هو جمع الثراء، فكانت كل المصادر تردد أفكار نور وطارق، لكني لا أعتقد أنها كانت الأفكار السائدة.

وبدأ الحوار كالآتي من نور:

- وحشني والله يا طارق .. كنت فين في الأيام السودة اللي فاتت؟

- وإنتي أكتر .. أنا كنت شغال لحد ما جالنا أوامر الانسحاب، الصراحة كان الحال صعب جداً، دول الجماعة بتوع حماس وحزب الله كانوا مالين الدنيا، فكان لازم نسيب الجيش يدخل .. بس بقى ف طلعت على العين السخنة وقضيت أجازة حلوة.

لم تتعجب نور من كلام طارق وكانت تهز رأسها موافقة، ثم قالت:

- آه، أنا عارفة .. طب ورجعت تشتغل ولا إيه اللي حصل؟

- آه خلاص بقى .. بس من ساعة ما لغوا أمن الدولة وبقى إسمه الأمن الوطني وأنا مش عارف أرجع الجهاز تاني، عشان يعني يحسسوا الناس بالتغيير وكده .. مع إن احنا يعني اللي كنا مثبتين البلد دي بدل الفوضى اللي احنا عيشنها .. وأديني شغال في الأمن المركزي لحد ما ربنا يفرجها.

تسائلت نور بشئ من الجهل وهي تحاول أن تفهم الامر:
- طب ومبسوط في القطاع ده؟

رد طارق في نوع من الارتباك في محاولة لإخفاء عدم رضاه بالقطاع:
- هو مش وحش الحقيقة، يعني أحسن ما أتحول شئون إدارية زي ناس تانية وأبقى زي الموظفين .. الشغل في الشارع ظريف برده .. بننزل نفض اشتباكات وحاجات من دي فالموضوع فيه شوية أكشن ..
- آه أنا كل شوية أسمع عن بلطجية نازلين يعملوا شغب وكده .. التانيين دول بتوع « المطالب الفئوية» اللي موقفين حال البلد .. أنا مش فاهمة الناس دي عايزة إيه؟!
تحمس طارق من شكاوى نور المستمرة عن الأحداث، كأنها قالت ما كان على لسانه، فقال موافقاً:
- والله ما أنا عارف .. مش عملوا اللي في دماغهم وشالوا الرئيس وجابوا غيره .. مش كفاية كده بقى، عايزين شوية استقرار في البلد عشان نرجع زي زمان بقى. ده أنا كل يوم بفض اعتصام من الجماعة بتوع المطالب الفئوية لحد ما زهقت، وحتى ...

أعجبت نور بكلام صديقها فقاطعته بدون قصد، وهي متعجبة من الحال:
- الإسلاميين دول لو كانوا عايزنها تهدى كانوا منعوا التظاهر زي ما حصل في بلاد تانية وخلصونا .. أنا مش فاهمة الناس انتخبوهم دول ليه كمان؟!

إنتفض طارق كأنه يملك إجابة هذا السؤال، وقال:
- والله أنا مش شايف إن في مشكلة في انتخابهم، بالعكس كمان انتخابهم شئ منطقي جداً .. إحنا بس لازم نديهم فرصة، الناس دي معها فلوس وعايزة تقعد، فلازم يظبطوا البلد وإلا الناس مش هتسيبهم.

فصاحت نور فيه معترضة:
- إنتخابهم شئ منطقي! .. منطقي إزاي يعني؟؟

إبتسم طارق من السؤال الذي كان ينتظره ليبث نظريته الجديدة التي في الأغلب سرقها من أحد أصدقائه الأكثر إبداعاً:

- شوفي يا نور .. العرب عموماً من أكسل الشعوب اللي ممكن تشوفيها، ده إحنا من الأماكن القليلة اللي في العالم اللي بتعمل خدمة توصيل الأكل مثلاً .. وبعدين الشعب المصري بقى عنده كسل خاص، إحنا البلد الوحيدة اللي الديلرات [5] بيوصلوا البضاعة بنفسهم للزبون، أي حته تانية الزبون هو اللي بيروح للديلر .. فا إحنا كشعب مصر فينا جزء متدين بس في نفس الوقت فينا الجزء الفاسد، بمعنى إن معظم الناس بتبطل كل المحرمات طول رمضان، وليلة العيد ترجع تضرب كل حاجة .. فا معظم الناس نفسها تبطل الحشيش والكحول بس مكسلة تبذل مجهود عشان تبطل، وزي ما بيقولوا الكيف غلاب .. فا عشان كده انتخبوا الإسلاميين، بما إنهم الفصيل الوحيد اللي هيخليهم يبطلوا بالعافية ...

ضحكت نور بصوت عالٍ، وحتى أنا لم أستطع أن أكتم ضحكتي على النظرية البارعة التي ألقاها طارق، فتذكروا جلوسي بجوارهم مرة أخرى، لكنى أعتقد أن طارقاً كان يتكلم بجدية تامة، وشعر بشئ من الخجل عندما ضحكنا. عادت نور لتتكلم بجدية، كأن طارقاً كان يمزح قائلة:

- الإسلاميين لازم هيمشوا قريب .. ماحدش هيضيق على الشعب المصري أسلوب حياته والناس هتسيبوا، والموضوع ده فعلاً جد .. هم نفسهم يخلونا أفغانستان بس الناس مش هتسيبهم، لكن للأسف لما ييجي الوقت ده أعتقد هيبقى في دم كتير، بس لازم ده يحصل ...

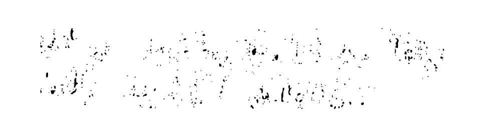
فقلت مقاطعاً كلامها، بعد أن تحمست لقولها أول شئ عقلاني منذ أن جلست:

- يعني أفهم من كده إن لما ييجي الوقت هتنزلي مع الناس وتواجهي السلطة معاهم؟

---

٥ كلمة عامية مشتقة من اللغة الانجليزية تشير إلى تجار المخدرات و الكحول

فردت متعجبة من طريقة تفيكري:
- لا يا عم .. أنا آخرى أنزل مسيرة خفيفة كده ولاً حاجة، لكن أول ما يبقى في ضرب هرجع البيت جري .. أنا مش مستغنية عن عمري يا عم ..
لم أركز في بقية حوارهما، ربما قاما من جانبي، وربما إستمرا في مهاتراتهما، لكن كل ما استطعت أن أفكر فيه هو العقلية المتناقضة التي تحملها نور، فرغم اعتقادها بأنه يجب أن تسيل الدماء، ويضحي البعض بروحه، لكي يرحل الإسلاميون، وهي تريدهم أن يرحلوا بشدة .. إلا أنها ليست مستعدة لأن تضحي بنفسها، فكانت هذه هي أول مرة أفهم فيها أن هذه العقلية هي السبب الحقيقي الذي يؤدي إلى أن تكون كل الحالات التي تصلنا في المستشفي من الشباب الفقراء، ونادراً ما رأينا شخصاً ميسور الحال يدفع ثمن قضية الوطن.



الأزمة

الازمات أصبحت جزءً من حياتنا، شئ أسبوعي، إن لم يكن يومياً. وربما إذا كلمة أزمة ليست الكلمة المناسبة لوضعنا، لأن «الأزمة» توحي بالشدة والضيق في مرحلة زمنية معينة، لكن أزمتنا أزمة دائمة، أزمة عقل وأزمة نفس.

الأزمة شئ غير دائم بشكل أبدي، ربما ما نعيشه هو أشبه بحالة السقوط، حالة الهبوط اللامتناهي بسرعة متزايدة أبدياً نحو مركز الجاذبية، حتى نصطدم بشئ، وكل مرة نقترب من شئ نتمنى أن يكون هو آخر شئ صلب، نتمنى أن لا نخترقه بقوة سقوطنا ونستمر في هذه الحالة التي تبدو دائمة، نتمنى أن لا نكون داخل ثقب أسود لا ينتهي لنولد ونموت في حالة سقوط أبدي.

كنت أعتقد في البداية أن حالة السقوط هي الحالة الأولية لنا، بل تخيلت إننا مستقرون، لأني لم أعرف شيئاً غير السقوط، لماذا تلوموني؟ فأنا لم أر الثبات من قبل لكي أستطيع أن أميز بينهم. وكلما نظرت حولي رأيت ناساً تغرق في جلدها من شدة الهبوط، يشكلون بجلدهم غلافاً قوياً ليحميهم من العالم الخارجي، من قوة الاصطدام بالهواء، مثلما

تفعل السلحفاة في حالة الخوف، ولم أدرك كل هذا إلا متأخراً، تخيلت أني سأستطيع أن أنجو من كل هذا، ولن أكون مثل بقية خلق الرب، وأعتقدت أني سأسبح عكس الجاذبية، وأحطم القوانين الفزيائية بقوة الإرادة ... هاا، كم كنت ساذج!

كان يومها يوم الثلاثاء، رغم أن كل أيام الثلاثاء تتشابه بنفس ثقل الدم، وتفتقد أي إيقاع حقيقي، إلا أن ذلك اليوم اختلف تماماً. لم يكن له إيقاع حي كزملائه، لكن كان له صوت قوي، أشبه بصيحة أبواق إعلان القتال في القرون الوسطى، أو دوي الصفير الذي ينطلق الآن قبل قذف الطائرات، كان صوتاً وحيداً وغير متكرر، لا يتغير إيقاعه، ولا تتغير نغمته، مثل دقة وحيدة على طبل جلدي كبير، ربما كان هذا هو صوت التصادم.

كنت قد بدأت أستقبل حالات في غرفة الطوارئ في المستشفى بمفردي، كنت صاحب القرار، لم يكن هناك من يشرف على بأي شكل، كانوا يقولون لي، «نحن نثق فيك يا ..». ربما كانت أول مرة تخترق السعادة جسدي وتنتشر في دمي، عندما كنت أقف بمعطفي الأبيض وأدواتي الطبية لأجذب الأرواح إلى أجسادها مرة أخرى، مثل الطفل الذي يهبط طائرته الورقية من السماء إلى الأرض.

لكن يوم الثلاثاء هذا كان يوماً مختلفاً، كان اليوم الذي أيقظني من نشوتي الزائفة، كانت أول مرة أدرك أن حالة الهبوط ليست فقط حالة عامة، بل حالة شخصية جداً، كان اليوم الذي أدركت فيه أننا غير مستقرين، بل إننا نهبط جميعنا بنفس السرعة، فنعتقد أننا ثابتون في أماكننا، لكن كل هذا حدث عندما اصطدمت بشئ لم يصطدم به أحد، شئ جعلني أهبط أسرع من الجميع، شئ جعلني أدرك حالة الهبوط الشخصية، كنا قرب الفجر تقريباً، عندما يكون الليل أكثر ظلاماً، ودخل إلينا حالة لسيدة إسمها نادية الأباصيري (لم أعتد على تذكر أسماء المرضي لكي أتفادي حدوث أي تواصل شعوري، لكنني لا أستطيع نسيان اسم هذه

الحالة)، كانت قد سقطت من الشرفة أثناء نشر الغسيل، أخذت اتساءل من الذي ينشر الغسيل في هذه الساعة؟ ربما كان سقوطها بفعل فاعل، ليس مهمتي .. كنت أتمتم لها قائلاً: «سأنقذك مثلما أنقذت من قبلك» .. أعتقد أنها سمعتني لأني رأيت عينيها ترجفان، أو ربما كانت عيناها تودعان روحها .. نعم خذلتها، وخذلت نفسي، وخذلت كل من كان يثق في، فقدت حالة من قبل وأنا أساعد أطباء آخرين، لكن لم تؤثر فيَّ مثل نادية، لم تصدمني بالواقع وتنبهني بالسقوط مثلها، أصبحت لا أعلم إذا كان الموت شيئاً مؤلماً أم شيئاً مريحاً، شككتني نادية في كل شئ.

كانت شمس الثلاثاء تحاول أن تشرق لكن لم تتركها الغيوم تفعل ما تشاء، كان السحاب يسجن الشمس حداداً على نادية، أو ربما حداداً عليَّ، تركوني أعود إلى البيت لكي أستريح قبل انتهاء موعد العمل، هل ظهر الشحوب على وجهي إلى هذا الحد؟. أنا آسف يا نادية، وعدت ولم أوف. لن أختبر جسمي وأرى إذا كان سيتركني للنوم، لأنه لن يتركني في يوم مثل هذا، سأجبره على النوم، سأضعه في الأمر الواقع ... أخذت المنوم وإختفي كل شئ.

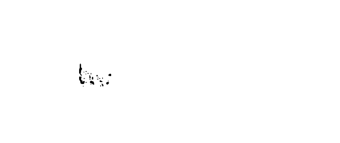
«اليوم السئ يظهر من أوله» و»المصائب لا تأتي إلا في مجموعات» جملتيان أكرهما لأنهما يثبتان أنهما على صواب كل مرة. لم أستيقظ إلا بعد غروب الشمس التي لم تشرق من خلف الغيوم، كل يوم يغادر عالمنا الآلاف، لماذا قررت السماء أن تودع نادية بالأخص؟ لماذا أتى عليَّ الدور أن أفقد مريضاً اليوم؟ لماذا أتتني نادية ولم تذهب إلى المستشفى الأقرب لمنزلها؟.. أسكت، لا جدوى من كل هذه الأسئلة، غادرت الفراش إلى المطبخ وفتحت الثلاجة، أخذت أحدق في الأكل وأنا أبحث عن شئ أعلم أنه غير موجود .. لم أكن جائعاً في الأساس، وقررت أن أبتعد عن التفكير تماماً.. أن أنتشل نفسي من الشرود الذي سيقتلني. جلست أمام التلفزيون، كان هذا هو حل الهروب الوحيد. فتحته لأجد رئيس الجمهورية ينتظرني،

يقف ببدلته الواسعة ووجهه غير المتناسق خلف ميكروفون، وهو يلوح بإصبعه ويصرخ في وجهي، كتمت الصوت لكي لا أفقد أعصابي، واكتفيت بقراءة الكلام في الشريط الذي يتصدر أسفل الشاشة، كان يقرأ بعض القرارات التي إتخذها، ويبررها بشكل أو آخر، قمت من مكاني لأصنع القهوة حتى ينتهي، ثم أسمع الملخص في أي برنامج، ذهبت وعدت لكنه لم ينتهى، أعتقد عندما عدت بعد صنع رابع أو خامس فنجان قهوة أنه كان قد انتهى، فرفعت الصوت مرة أخرى لكي أفهم الأمر بصورته المتكاملة، كان يسود الاندهاش على وجه المذيع، ولم يكن اندهاشاً من النوع الإيجابي على الإطلاق، كان اندهاشاً ممتزجاً بسخط وخوف.

ظل الأمر لغزاً بالنسبة لي حتى قرر المذيع أن يشرح أن الرئيس قرر أن ينصب نفسه فرعوناً أو ديكتاتوراً، قرر أن يصبح كل شئ، فحصن نفسه من القضاء، وخلع النائب العام ليأتي بواحد أقرب إلى قلبه، وكان يبرر كل هذا بأنه ضروري لمواجهة النظام القديم وتثبيت قدمي النظام الجديد، أو شئ من هذا القبيل. كم أنت مغفل يا طارق بنظرياتك المضحكة؟

أخذت أجازة من المستشفى بعد حادثة نادية، فجلست على أريكتي أتابع التلفزيون والأحداث ليل نهار، بعد خطاب الرئيس غير الموقر، انهالت تصريحات القوى الثورية وأحزاب المعارضة ضد هذه القرارات التي تزرع بذور الفاشية في الدولة المصرية، وتمهد الطريق إلى القاع، ودعوا الجميع للنزول إلى الشوارع والميادين وإعلان الاعتصام حتى يتراجع الرئيس عن قراراته، وفي المقابل كانت التنظيمات المؤيدة (الإسلامية) قد توقعت هذا الرد من المعارضة، فسبقوا بخطوة واحتشدوا في الميادين بعد إلقاء الخطاب على الفور. وبدأت حالة الانقسام تظهر، واتسعت الفجوة، وأصبح الجميع مع أو ضد القرارات بشكل صريح مع إختفاء كل الأراضي الوسطى. في اليوم التالي احتشد الجميع في المنطقة الوحيدة التي لم تحتلها التظاهرات المؤيدة، وامتلأ محيط قصر الرئاسة بالمعارضين حتى

أعلنوا الاعتصام مع نهاية اليوم، وأصبح المعارض يحتل أرضاً والمؤيد يحتل أرضاً، ولم يصل أحد إلى شئ. توالت الأيام وإندثرت الأعداد، ومل الجميع من هذا المشهد المتكرر، وتحولت الافكار إلى حقائق في أذهان الناس، وقرارات بين الجموع، مثلما قرر البعض أن اصحاب البشرة البيضاء هم فقط من يستحقون العيش، ومثلما قرر البعض أن الطائفة الكاثوليكية يجب أن تنتهي، أو أن الطائفة البروتستانتية يجب أن تنتهي، أن اليهود شعب الله المختار، والبقية شعب غير مختار، أو أن أصحاب البشرة البيضاء هم أسياد الهنود الحمر، أو ...، أو ...، أو أن معارضي الرئيس الإسلامي ليس لهم حق الاعتراض ... أصبحت المعركة معركة وجود.



عدسة عبد الرحمن

نسي عبد الرحمن أيام المعتقل وأيام الخوف منذ زمن، العقل يعمل بطرق عجيبة، فعندما كان أمن الدولة يعمل بكامل قوته، حصن عبد الرحمن لخوفه من أي شئ يربطه بالتنظيمات الإسلامية، وفي الوقت نفسه لم يكبت توجهاته، واختلق حجة عجيبة ليبعد عن أصدقائه قائلاً لنفسه إنه يحمل آراءً مختلفة في بعض الأمور ويخشي الصدام، وأخذ يعزل نفسه عن مكمن الخطر بحجج ومبررات لا تنتهي، ويوماً بعد يوم بنى سوراً حول نفسه، مع ذلك لم يستطع أن يحمي نفسه، ومع تحول هذه التنظيمات إلى مصادر قوة في الساحة السياسية، واختفاء احتماليات الملاحقة، هدم الحصون في ثواني، واختفت المبررات والحجج في لحظات، وفجأة أصبح يتفق معهم تماماً، ويريد أن يصبح جزءً منهم، والأمر غير متعلق بالدين نهائياً، بل متعلق بالأنا التي تعيش داخل كل شخص، وهذا لا يعني أن من ظل في التنظيمات أوقات الخطر كان أكثر إيماناً أو أكثر شجاعة، بل كان يملك حججاً ومبررات مختلفة، وكل ما في الأمر هو أن عقله بنى له حصوناً من نوع آخر.

المهم الآن أنه أصبح هناك نوع من حرية الفكر والتوجه، ليس بالشكل الكامل الذي تتمناه المنظمات الحقوقية، ولكن إلى حد ما حدث تقدم، واستطاع كل شخص أن يزيح مخاوفه، إن كانت له مخاوف، واستطاع الآخرون أن يخرجوا التناقضات التي تعيش بداخلهم، أو يستمروا على نفس النهج ويخدموا السلطة مهماً كانت، لكن بالنسبة لعبدالرحمن فقد سحبته دوامة العقل إلى أن يصبح جزءً قوياً من التنظيمات الإسلامية وعضواً في حزب إسلامي، فأصبح له وظيفة جيدة ضمن حكومتهم، وتحول من خريج جديد يقف في صيدلية يبيع الأدوية ولا يتعلم شيئاً إلى عضو بارز في النقابة، وكادر مهم للسلطة. فكما تأخذنا أمواج المصادفات عبر البحور لترمينا من مكان لآخر، تسحبنا أيضاً دوامات عقولنا ألاعيبها من جهة إلى جهة.

كان عبد الرحمن في مقر الحزب عندما وقف الرئيس ليقول خطابه الذي لم أستطع أن أشاهده، وبالطبع لم ير عبد الرحمن أي مشكلة في كلام الرئيس، بل كان يثق فيه ثقة عمياء، كيف سيعارض السبب الذي أوصله إلى كل ما هو فيه الآن؟

استمع عبد الرحمن باهتمام وهو يجلس مع كل المتواجدين في المقر ويدون النقاط الهامة، لكي يصدر بيان التأييد بعد الانتهاء من الخطاب، فرأى أنه قد آن الوقت لمواجهة بقايا النظام القديم وتطهير المؤسسات، وأن ذلك لن يحدث إلا بالتحصينات التي اتخذها الرئيس، وبالتأكيد لم يشك في نوايا الرئيس المؤمن طوال كلمته، وكان عبد الرحمن سعيداً بهذه الخطوة التي تأخرت كثيراً، وجلس يهز رأسه بالتأييد كلما قال الرئيس قراراً جديداً، ومع انتهاء الخطاب انهالت المكالمات على كل الجالسين لتحثهم أن ينزلوا الشوارع ليساندوا الرئيس، وقبل أن ينتفض ما تبقى من النظام القديم، كان الكلام مقنعاً، ونزل معهم عبد الرحمن.

استمر عبد الرحمن ينزل مظاهرة التأييد يوماً بعد يوم، حتى أتتهم معلومات أن ما تبقى من المعتصمين أمام القصر الرئاسي هم من البلطجية والمأجورين، ولذلك ستذهب الشرطة لفض الاعتصام بالقوة وسيرافقهم مؤيدو السلطة حتى تساندهم وتعطيهم غطاء شعبياً لكي لا تظهر أقاويل عن بلطجة الشرطة وما شابه ذلك، وكان كل هذا الكلام منطقي بالنسبة لعبدالرحمن الذي أصبح يتمتع بحرية الرأي والتعبير، ولكن لا يمنحها لأحد، فكلمة «بلطجية» في مصر أو «شبيحة» في سوريا، أو «مأجورين» في أي مكان في العالم العربي لها مفعول ساحر، وبما أن الاتهام سهل، وتعريف الكلمات غائب، أصبح من السهل أن نصف أي شخص بأى شئ، ويصدق الجميع، فمع سماع عبد الرحمن كلمة بلطجية تحمس على الفور لإنهاء هذا الاعتصام، رغم أن «بلطجية» وصف حل محل كلمة «الإرهابين» التي كانوا يصفوه بها منذ بضعة أعوام، لكن ها هي عقولنا الخبيثة تعمينا عن البصيرة.

قام عبد الرحمن بطقوس استغداد المعركة، فاستحم، ثم صلي العصر ودعا من كل قلبه إلى الله أن ينصرهم على كل الظالمين، وأن يطهرهم من بقايا الفاسدين، ثم إرتدي ملابس المعركة التي تكونت من بنطلون جينز أزرق، وقميص فوقه سترة جلد سوداء تحمي الجسم إلى حد ما من سلاح الخرطوش، ووضع في جيب سترته كمامة طبية لتحميه من الغاز المسيل للدموع، وسحب قبعة البناء ليحمي رأسه وانطلق نحو نقطة التجمع، وفي الطريق أتته مكالمة من زميله في الحزب - وأخاه في الله - ودارت كالتالي:

- السلام عليكم يا أخ عبد الرحمن

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. إزيك يا شيخنا؟

- بخير الحمد الله .. إنت فين يا عبده؟ إحنا خلاص هنتحرك أهو بمشيئة الله.

- أنا لسه في الطريق يا شيخنا، بس الدنيا زحمة شوية ..
- طيب حصلنا على هناك أسهل عشان خلاص الإخوة إتحركوا.
- خلاص هشوفك هناك يا شيخنا إن شاء الله.
- إن شاء الله.

حول عبد الرحمن مساره واتجه نحو القصر الرئاسي بسيارته القديمة وسط الزحام الذي كان يقل شيئاً فشيئاً كلما اقترب من ساحة المعركة، وبدأت الانباء تصل عبر الراديو عن اشتباكات في محيط قصر الرئاسة بين البلطجية والشرطة، فنطق عبد الرحمن بالشهادة وأسرع بقدر ما استطاع بسيارته العتيقة حتى وصل قرب الموقع وأوقف سيارته في ساحة انتظار وسحب قبعة الحماية من جانبه واتجه صوب المعركة.

دخل عبد الرحمن الشارع العريض، وكان سور القصر على يساره، وبعض المباني ومسجد على يمينه، وكلما اقترب وجد اخوة جالسين على الرصيف يرتاحون، وازدادت أكوام الطوب على الأرض الذي تم خلعها من رصيف الشارع، وكان جانبه مكون من صفين، صف خلفي من الإخوة يقذف الطوب فقط، وصف أمامي به ثلاثة مدرعات للشرطة يضربون على البطلجية الغاز والخرطوش وأحياناً الرصاص الحي، ويقف معهم بعض الإخوة يساعدوهم بأسلحة مماثلة.

إلتقي عبد الرحمن بصديقه في الصف الخلفي، فألقى عليه التحية، وبدأ في قذف الطوب، وكلما تقدم الصف الأول تقدم خلفه، وكلما رجعوا إلى الخلف عاد مثلهم، وكان عدد المعارضين كبيراً، وكانوا يقذفون الطوب على الشرطة ومن معهم، وأحياناً يصوبون الألعاب النارية في اتجاهم، ولم يكن هناك إصابات كثيرة من جانبهم، ولكن بين حين وآخر كان يسقط شخص بإصابة فيحملوه إلى الإسعاف، كان أهم شئ هو أن يركز عبد الرحمن مع الطوب الذي يسقط عليه من السماء لكي يتفاداه، وبعد ساعات من الكر والفر أخذ عبد الرحمن جانباً وجلس على الرصيف

ليشرب المياه ويرتاح قليلاً عندما لمح وجهاً لن ينساه أبداً، كان نفس الرجل الذي سحبه من فراشه في ذلك اليوم المشؤوم، وعذبه في المعتقل يقف في الجهة المقابلة، يرتدي الملابس الميري، ويمسك بقناع الغاز في يد ويشرب مياهاً باليد الأخرى، وهو يحمل السلاح على كتفه، فكر عبدالحمن في لحظة تهور أن يقوم ليقتله ويأخذ بثأره، انتابته قشعريرة في جسده، عندما تذكر الغرفة المريبة التي وضعوه فيها، والتعرية، وإناء الماء الذي يسكبه، وعادت كل الافعال الوحشية التي قاموا بها في المعتقل لتهاجمه مرة واحدة، لكنه لن يستطيع قتله وسط كل هؤلاء الناس .. إذاً ماذا سيفعل؟ كان من المستحيل أن يعود عبد الرحمن ليقف بجانبه وكأن شيئاً لم يحدث، هو جاء ليطهر المؤسسات من النظام القديم فوجده يقف بجانبه .. ماذا يفعلون بنا هؤلاء الحكام وهؤلاء الشيوخ الذي نسمع كلامهم؟ فكر عبد الرحمن. ثم شعر بتشوش شديد، وشعر أنه يتم التلاعب به، واستغفاله .. فعاد ليتسأل مجدداً، إذاً هل نحن البلطجية؟ ... انسحب عبد الرحمن من المكان وهو يحدث نفسه، وقرر أن يختفي حتى يفك خيوط الواقع وألغازه.

عدسة طارق

سبب من الأسباب التي جعلت طارق يصرف النظر عن كلية التجارة كانت أنه لا يريد أن يعمل موظفاً في شركة، فيحبس نفسه خلف المكتب لمدة ساعات وساعات من عمره، ويكون له رئيس عمل يحركه كالدمية، ويوجهه في كل خطوة، ثم يجني هو الأرباح في النهاية، وبما أن عائلته لا تملك أي شركة لكي يديرها، أو شيئاً من هذا القبيل، صرف النظر عن كلية التجارة، وعرض عليه والده كلية الشرطة، فشعر أنه أنسب الاختيارات، وكان والده يعتبر من الاسماء المهمة بالوزارة قبل أن يتقاعد، ولم يعمل حساباً لليوم الذي سيتقاعد والده، وتتكسر الداخلية، فيضطر أن يصعد سلم العمل مثل بقية الضباط دون تمييز، ولم يتخيل قطّ إن السحر سينقلب على الساحر هكذا، لكنه لا يستطيع أن يتذمر كثيراً، لأن الحال كان من الممكن أن يكون أسوء بكثير، فهو الآن – على الأقل - له شئ من الهيبة التي بناها سابقاً، وله بعض المعارف والأصدقاء داخل الوزارة لكي يستطيع أن يعيش. المشكلة الأكبر هي أنه لم يستطع أن يتجنب أي شئ من الأشياء التي جعلته لا يدخل كلية التجارة، فعمله أسوء من موظف في شركة، فهو أداة بيد نظام. تأتي أنظمة وترحل أخرى وهو مجرد أداة

تحميها، يا له من ذل مؤلم. ولاءه فقط لمن يصرف له المرتب كل شهر- أي الحكومة - لكي يعمل لها كطاغية لا أكثر ولا أقل، والشئ العجيب هو أن الشرطة هي الجهة الوحيدة التي لا يصفها الإعلام بالبلطجية، لماذا؟ فقط لأنهم يرتدون نفس البزة الشرطية، ويعملون لصالح من يتكلمون باسم السلطة ويحملون مفاتيح قصورها.

بالتأكيد لم يفكر طارق هكذا، فقد إعتدنا كآدميين أن لا نعترف بأخطائنا إلا إذا أجبرنا الموقف، وربما كبرياؤنا له علاقة بذلك، أو ربما لأنه من الأسهل فقط أن نظل ملائكة لا نخطئ في أعين أنفسنا، فكيف كان سيواجه طارق نفسه بكل هذا الكلام الذي نتج عن شئ حدث من حفنة من السنوات لن يستطيع أن يغيره؟ لا يعقل بالتأكيد، فإذاً كان من الأسهل له أن يسير في موكب المنتصرين ويبرر عمله بأشياء مثل: الوطنية، والحفاظ على أسس الدولة، وحفظ المؤسسات .. إلخ إلخ . للأسف يتعامل البعض مع كيان الدولة على إنه شئ خلقه الرب في اليوم السابع من تكوين الدنيا، الذي قال لنا إنه أخذه للراحة. بالتأكيد كل من يعمل من أجل الدولة سيتعامل معها على أنها شئ أزلي ليست من صنعنا، بل من صنع كيان إلهي.

(ما كل هذا الغضب الذي أحمله لطارق؟ .. غضب؟ أين الغضب؟ ألم يكن هذا هو الواقع .. هذا الواقع من عدستك وليس من عدسة طارق، عليك أن تكون موضوعياً .. موضوعياً؟! فلتذهب الموضوعية إلى الجحيم! كف عن الهراء، الموضوعية شئ وهمي، لم ولن يصل اليه أحد قطً، أنا لدي أفكاري الخاصة، وطارق له أفكاره، وعامل النظافة له أفكاره، ولن نتخلي عنها حتى وإن حاولنا .. إذاً لماذا توهم القارئ أنك تكتب من عدسة طارق وهي حقاً عدستك؟ كف عن إقحام آرائك هكذا واكتب ما قاله لك فقط! .. سأحاول أن أتمالك نفسي..)

لم يكن طارق في غاية سعادته عندما ظهر رئيس الجمهورية يعلن أنه الفرعون الجديد، لكنه لم يكن له أن يعترض، وأقنع نفسه أن أبعاد اللعبة تتغير، وأنه يجب أن يتواءم معها لكي يتقدم في عمله، ففي النهاية هو يعمل من أجل الوطن وليس من أجل فصيل سياسي معين، وإذاً عليه أن يكون جاهزاً لمنع وطننا من الانزلاق إلى الفوضى مرة أخرى، فنحن الآن على حافة الهاوية، وعليه أن يصمد حتى يتضح الأمر.

لم يتكلم طارق عن قرارات الرئيس مع أحد ذلك اليوم، ولم يعلق على صفحة الشبكة الاجتماعية على الإنترنت، بل التزم الصمت حتى يستطيع أن يفك خيوط الواقع ويفهمها.

في اليوم التالي جاءته أوامر من رئيسه أن يذهب بوحدة تأمين لكي يضمن سلامة التظاهرات المؤيدة، وبالطبع لم يعترض ولم يبال كثيراً، فهو تعود أن يتقبل الأوامر ولا يناقشها، وظل على هذا الحال يوماً بعد الآخر حتى أتت أوامر فض الاعتصام.

ذهب مع بضعة ضباط وثلاثة تشكيلات أمن مركزي لكي يقوموا بفض الاعتصام، وعندما وصلوا كانت أعداد المعتصمين قليلة، فبدأوا يجهزون أنفسهم من أجل هذه العملية حتى ينتهوا منها في أسرع وقت ممكن، وبدأوا بضرب الغاز المسيل للدموع، فهرع المعتصمون وبدأوا يردوا بقذف الطوب، ولم يطل الوقت حتى ظهر المتظاهرون المؤيدون، ثم بدأ الضرب يشتد، وإزدادت أعداد البلطجية المعتصمين، ويبدو أنهم طلبوا الإمداد من أصدقائهم البلطجية (على حد قول طارق)، وبدأوا في قذف زجاجات المولوتوف والألعاب النارية على الأمن والمؤيدين، فأتت أوامر أن باستخدام الخرطوش.

كان طارق يعتلي إحدى المدرعات ليضرب الخرطوش ثم يبدل مع زميله ليستريح قليلاً، وبين حين وآخر كان يحدث بعض الكر والفر، ولا يسفر عن شئ إلا القليل من الاعتقالات، وبعد أن امتد الضرب

لبضعة ساعات جاءت الأوامر التي كان ينتظرها طارق، وسمحوا لهم أن يستخذموا الرصاص الحي، وكان طارق يعشق هذه الفقرة، فالشئ الوحيد الذي كان يؤدي فيه فعلياً أيام الاكاديمية كانت الرماية، وعندما أتى موعد الضرب لم ينزل من على المدرعة، بل ظل جالساً في الفتحة العلوية وهو يتلذذ باصطياد البلطجية واحداً تلو الآخر وهو يشعر بنفس النشوة التي كانت تغمر جسده عندما كان يقود سيارته بسرعة جنونية مثلما يفعلون في السباقات، حتى أتت أوامر بوقف إطلاق الرصاص الحي. (كان طارق يحكي لي كل هذا بافتخار شديد، وهو يشعر أنه فعلياً أنقذ الوطن، ويتباهى بدماء من ينعتهم بالبلطجية).

في النهاية قال لي طارق في سعادة غامرة: « بس وخلصنا على الاعتصام، ثم توقف قليلاً وقال في تردد: «الكلام ده بيني وبينك طبعاً..»

عدسة عادل

لم يكن عادل ممن تواءم مع الأحداث، فمنذ أن اندلعت المظاهرات، وبدأت الموجة الثورية، أصبح الحديث في السياسية جزء من الحياة اليومية لمعظم المواطنين المصريين مثل الطعام والشراب، لكنه كان من القلة القليلة التي رفضت أن تنساق مع هذه العادة الجديدة.

كان عادل يتمتع بوعي قوي بالنسبة لشخص لم يكمل تعليمه، وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يلزم الصمت، فكان يعلم جيداً القوة التي يملكها الأمن، وقيل له من قبل: إن الامن يملك ملفاً لكل شخص في مصر، فإذا شعروا أنك تسبب لهم الازعاج سيخرجوا لك الملف، وتنتهي القصة، وربما كانت المرة الوحيدة التي تكلم فيها عادل في أمور سياسية كانت تتلخص في جملة أو إثنتين مع عبد الرحمن عندما زاره في الورشة، ومن الممكن أن يكون تكلم مع إخوته مرة أو إثنتين أخرين، لا أكثر.

وكان عادل من الناس التي تعطي أمنها قيمة شديدة جداً تفوق أي شئ آخر، ولم يمانع أن يعيش في ديكتاتورية ولا يحظى بأية حقوق مقابل أن يبقى هو وعائلته في أمان، ويبقى دخلهم ثابتاً، وربما يري البعض أن عادلاً شخصية جبانة، وربما يرون إنه ذكي، لن تفرق في كلتا الحالتين.

كان عادل يجلس في الورشة عندما قرر الرئيس أن يلقي خطابه، ولا يوجد في الورشة راديو، والتلفزيون لا يشغلوه إلا لتصليح الأجهزة، ورغم أن عادل صنايعي «دِش» لم يكن يحب مشاهدة التلفزيون، وكانت معظم معلوماته تأتي من الجرائد التي يتركها الأسطى سيد في الورشة بعد أن يقرأها، فعادةً كانت كل معلوماته متأخرة حوالي يوم، إلا إذا قرر أحد الزبائن أن يحكي له خبراً جديداً، فكان يستمع في صمت ثم يعود ليتوثق من الخبر في اليوم التالي، ولم يعلم عادل أن الرئيس يقول خطاباً إلا عندما مر عليه أحد أصدقائه القليلين – طه - وقال له:

- سمعت الزفت طلع بيقول إيه؟

ضحك عادل من أسلوب صديقه المندفع، ثم قال:

- زفت مين؟

- الرئيس المؤمن يا عم ..

فقال عادل في نبرة عتاب:

- يا عم بس بقى ما تعملناش مشاكل في الورشة.

فعاود طه سؤاله بطريقة جدية:

- لا مؤاخذة يا عم .. طب بجد ما سمعتش؟

فقال عادل وهو منشغل في شئ آخر بعدم اهتمام:

- لأ ما سمعتش ..

فقال طه في لهفة الانفراد بالخبر:

- ده طلع شوية قرارات، من الآخر كده يعني عمل نفسه ديكتاتور زي اللي قبله .. وشكلها كده الدنيا هتولع تاني.

فقال عادل في عدم اكتراث:

- وماله يا سيدي ..

فرد طه وهو يغادر:

- أنا هنزل المظاهرة بكره لو عايز تيجي.

- متشكرين.

كان عادل قد تعرف على طه منذ بضعة سنوات، عندما عاد عادل إلى القاهرة بعد الاعدادية، فعملا معاً كصبيين تحت قيادة الأسطى سعد في ورشة الرخام، لكن الفارق أن طه كان يملك الحرفة فاستمر في هذا العمل، أما عادل فانتقل ليعمل مع الأسطى سيد الذي يملك ورشة في الشارع المقابل، فكانا يلتقيان بالصدفة حتى توطدت علاقتهما وأصبحا أصدقاء العمر.

نسي عادل موضوع القرارات الرئاسية والتظاهرات وكل شئ، وعاد لمبدئه وركز في عمله، وفي يوم الاشتباكات وهو يغادر المحل وجد أم طه في وجهه، فقال:

- سلامو عليكو، إزيك يا أم طه؟

فلم ترد على سؤاله وقالت بوجه مهموم:

- ما تعرفش طه فين يابني؟

- لا والله ماشوفتوش بقالي كام يوم .. خير، هو في حاجة؟

غمغمت أم طه قائلة:

- أصل بحاول أكلمه لقيته مش بيرد، فنزلت الورشة أدور عليه قالوا لي إنه راح المظاهرة لما سمع إنه في ضرب .. فقلت أشوفك يمكن تعرف حاجة ..

فقال عادل في دهشة:

- لا ما كنتش أعرف .. طب ما تقلقيش يا حاجة تلاقي التليفون وقع منه بس أو مش سمعه، أنا هروح أجيبه وأخليه يكلمك

- ربنا يخليك يابني، إن شاء الله خير

غادرها عادل بسرعة توجه إلى القصر الرئاسي، بعد أن سأل الناس في ورشة الرخام عن مكان الاشتباكات، ودخل الشارع الذي فيه الاشتباكات فكان سور القصر على يمينه والمباني على يساره، لكن العدد كان أكبر من أن يجعله يتشجع ويبحث عن طه وسط كل هؤلاء الناس.

كان يري شباباً كثيراً يتجمع ليكسر طوب الرصيف، وآخرين

يقذفونه، وشباباً تمسك الخميرة لكي تطفئ مفعول الغاز المسيل للدموع، وكانت الرائحة قوية والجو ممتلأً بالدخان، لم يعرف عادل ماذا سيفعل، وكان يسمع صوت الاسعاف يرن في أذنه باستمرار، ويقطعه صوت إطلاق رصاص بين حين وآخر، وكان يري كل هذه المشاهد في الصحف، لكن التواجد على الأرض كان شعوراً آخر. كان يري أناساً يخرجون من الصف الأول للاشتباك ويحملون شخصاً يتقطر منه الدم، وأحياناً يكون شخصاً يحمل المصاب على موتوسيكل، فكان يركز في وجوه المصابين، وهو يتمنى أن لا يكون طه. شعر عادل بالعجز الشديد، وسأل شخصاً واقفاً بكاميرا جانبه: «بتروح فين الإصابات دى كلها؟»، فأشار الشخص الذي يبدو أنه صحفي إلى الخلف وقال «معظمهم بيروحوا المستشفى الميداني هناك، بس في حالات بتركب الإسعاف». توجه عادل إلى المستشفى الميداني، لكن لم يستطع الدخول، للزحام الشديد، وكثرة الصراخ، ثم أمسكه شخص من كتفه وقال له:

- محتاجين أدوية للناس دي، معاك فلوس؟

- آه، محتاجين كام؟

قال الشاب وهو يشير:

- تعالى معايا في صيدلية هنا ..

جمع الشاب ثلاثة أو أربعة آخرين ومشوا بعيداً عن الاشتباكات إلى الصيدلية، وهناك اشتروا كل المستلزمات، وأعطوا كل واحد فاتورة، وشكرهم الشاب، وهم عائدون إلى المستشفى كان عادل قد بدأ يشعر باليأس فإستغاث بالشاب وقال له عن صديقه طه، فأدخله إلى المستشفى الميداني التي كانت مقامة في مدخل عمارة، وأعطاه كشفاً بالناس التي توفت هنا، وقال له: إنه هناك احتمال أن يكون قد ذهب في إسعاف إذا كان قد حدث له شئ، أخد يحدق في الورقة وهو يتمنى أن يستيقظ من هذا الكابوس، ولكن فجأة توقفت عينيه على اسم طه ... ظل يحدق فيه حتى ظهر شخص بجانبه وقال: «بعد إذنك ممكن الورقة»، فأعطاه

الورقة وهو شارد الذهن تماماً، لا يستطيع أن يستوعب الأمر، ولا يصدق. شعر بشئ يتكون في حلقه، وغلبه البكاء، فوقفت واحدة تواسيه وتسأله عن فقيده. لم ينظر اليها ولم يجيبها، ثم إتجه إلى أحد الأطباء وسأل عن الجثث التي توفيت هنا، فرد إنهم أرسلوا للمشرحة، وفي أغلب الأحوال ستستطيع العائلات أن تستلم ذويها في الغد .. لم يرد عادل .. ولم يشكره .. سحب نفسه خارج المستشفي ققط، ولم يحاول أن يسيطر على دموعه مجدداً، بل تركها تسيل على وجهه. ولم يشعر إنه غريب في هذا المكان، لم يحدق فيه أحد وهو يبكي، كأنه تجمع للالأرواح المنكسرة، وتوجه بنفسه إلى الصفوف الامامية، وبدأ يفرغ غضبه الشديد في قذف الطوب.

كان يعاتب نفسه لأنه ترك صديقه يسقط هكذا، لكن من قال أن في يده شئ، من أقنعه أنه كان سيحميه؟.. أصبح عادل في المقدمة فجأة، ولم يعد يخشي شيئاً. فليذهب الأمان المصطنع إلى الجحيم إذا كانوا قد يقتلوا طه بهذه السهولة! كأن الحياة أصبح ثمنها بخساً! جاء عادل لينقذ طه، فلم يجده. فحان وقت الثأر، ولكن ماذا سيفعل شاب أعزل أمام كل هؤلاء الجنود المسلحين؟ لم يهمه شئ، فأخذ يرمي طوبة بعد طوبة ودموعه لا تجف.

سمع دوي طلق الرصاصة بقربه، وبدأ ينزف من بطنه وهو لازال يقذف الطوب .. لم يشعر بشئ .. بدأت الصورة تبهت أمامه، والصوت يخفت .. كان قد مات جزء منه عندما قرأ اسم طه، وكل ما فعلته الرصاصة هو أن فصلت روحه الميتة عن جسده .. وإختفي كل شئ.

عدسة إم

كان حال إم هو حال الكثير من الشباب، ناس تملك أحلام، وطموحات، ورؤى، لكن لا تستطيع أن تعثر على أيديولجيا تحتضنها، وربما هذا سببه التناقضات التي قد تتسم أافكارها، أو لأن كل الأيديولوجيات المتواجدة لا تستطيع أن تواكب طموحات الزمن، فالأيديولوجيات تخلق لنفسها حدوداً فكرية واضحة وصلبة، لكي تحتوي أفكارها ومبادئها، وأحياناً البعض يبحث عن مجموعة أفكار تحمل حدود فكرية لينة أكثر، لتمكنهم من تقييم المواقف حسب واقعها، وليس حسب ما يقول الكتاب الذي أسس الأيديولوجيا. لا أعلم بالضبط أين المشكلة، لكن بالتأكيد أصبح من الأسهل للشخص أن يتحرر من الانحصار في أيديولوجيا، ويخلق أيديولجيته الخاصة التي تتكيف مع أفكاره ومبادئه، ولا تجبره أن ينساق خلف أناس آخرين، لكن في الوقت نفسه ربما ينتج عن هذا المقترح كوارث فكرية لا تقبل ولا تحتمل.

إم وقعت في خطأ عندما لم تحاول أن تبحث حقاً عن أفكارها التي تؤمن بها وتعيش من أجلها بشكل صريح، أو حاولت ولم تنجح بمعنى

أصح، فمع عدم تحديد واجهة صريحة ينسحب الشخص خلف مشاعره الناتجة عن الواقع مثلما حدث مع إم، ولا يفكر بشكل منطقي.

بدأت إم تحاول أن تحدد أفكارها بشكل واضح على طريقة الاقصاء، أي: أن تحدد الأيديولوجيات والأفكار التي ترفضها تماماً، فتبدأ تتشكل أمام عينيها ما يصفي من الافكار. كان هذا إسلوب جيد بالنسبة لها، لكنه لا يضمن وصولها إلى شئ في النهاية، وكانت إحدي الثوابت الفكرية لديها، والتي توالدت مع الأحداث والثقافة، هي: الرفض التام لخلط الدين بالسياسة، فكل مرة يقوم البعض بهذا الفعل المشين، تم الزج بالدين وانتصرت الانتهازية، أياً كانت الديانة والوقت.

أما الاغتيالات التي قامت بها كنيسة الاسكندرية في القرن الرابع، أو حرب الثلاثين عاماً بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا، أو مجازر الدولة الإسرائيلية التي تعتبر نفسها ممثلة اليهود، أو حتى من المسلمين في أفغانستان، ومجازر السنة والشيعة ... إلخ. إذاً، لذلك تتعامل إم مع تيار الإسلام السياسي، بعد أن وصل للحكم، على أنه عدوها الأول والأهم.

كانت إم تشارك في أي فعالية ضد حكم الإسلام السياسي، وتخلق فعاليات جديدة ومبادرات لتوعية الناس عن واقع تيار الإسلام السياسي، ومحاولة حثهم على عدم الخلط بينهم وبين أي شئ متعلق بالدين، وكانت دائماً تقول للناس: «هم لا يملكون مفتاح الجنة كما يريدونكم أن تعتقدوا»، لكن لم يكن الجميع يستمع إليها وإلى نصائحها، فالكثير ممن ليس لهم أي فكر سياسي وضع ثقة عمياء، فيهم لأنهم مقربون من الله، ولن يفعلوا شيئاً يغضبه، وهذا الأسلوب الفكري بالأخص كان أكثر شئ مرعب بالنسبة إليها.

مع الوقت ظهر أكثر وأكثر بطش السلطة بوضوح ضد المعارضة: ظهرت الشرطة وهي تعتقل الصحفيين، والنيابة وهي توزع تهم ازدراء الأديان، وإهانة الرئيس، وبدأ التضييق بإسم الدين يظهر على حق كما

توقعت، وكل هذا أعطي لإم حجة في أن يكون لها رد فعل أقوى، وأن لا تيأس أمام الواقع المتحول، فكلما صدر قرار جديد يضيق على حريات الناس، ظهر عندها حافز جديد لكي تواجه السلطة، وتسعى لكشفها وإسقاطها.

كان خطاب الرئيس يمثل الضربة القاضية بالنسبة لإم، فأن يقف أمام الأمة بلحيته غير المهذبة ليعلن أنه أصبح فوق القانون، وإنه ينصب نفسه ليصبح القوة التي لن تقهر، كان هذا في حقيقة الأمر ما أشعل فتيل الغضب عند إم، وعندما ألقى الرئيس هذا البيان كانت تجلس في بيت أحد الأصدقاء وهم يعملون على بعض اللافتات والمواد الدعائية لحملة جديدة ضد التيار الذي يعتبر نفسه المتحدث الرسمي باسم الرب. كانوا يقومون بتأليف شعارات ويرسمون لافتات للفعالية التي ستعلن فيها إنطلاق الحملة، وبدون مقدمات جاء لإم مكالمة من أحد أصدقائها إن الرئيس يلقي خطاب فانتفضوا كلهم وتركوا كل ما في أيديهم، وجلسوا يستمعون في تركيز، فلم يطل الوقت حتى بدأت التعليقات الساخرة تنهال على كل كلمة تخرج من فم الرئيس، وعاد البعض للعمل بعد أن سيطر عليهم الملل من نغمة الرئيس الباعثة للنعاس، لكن فجأة بدأ يلقي عليهم قراراته، فسكت الجميع وركز في الشاشة، كأن هناك مفعولاً سحرياً فجأة جذبهم إلى هذه العلبة التي تصدر الأصوات والأنوار.

ارتخى فك إم من تلقاء نفسه دهشة من قرارات الرئيس، ثم انتهى الخطاب، وبدأ الجميع يتلفظ بأفظع الشتائم التي شعروا أنها مناسبة للحدث، لكن بالطبع لن أستطيع أن أكتبها هنا، حتى وإن أرادت.

فجأة نسي الجميع المبادرة والحملة الجديدة، ونسوا الشعارات واللافتات، وبدأوا يفكرون في كل عواقب قراراته، ويتناقشوا فيها بحدة ومرارة. التزمت إم الصمت وأخذت جانباً من الغرفة، وإنهمكت في صنع لافتة، لم يلاحظها أحد من الجالسين على الإطلاق، فكان كل شخص منهم

لايزال غارقاً في ذهوله، ثم هبت واقفة فجأة وهي تحمل لافتة في يديها مكتوب عليها بالخط العريض: «يسقط الرئيس الفرعون»، وقالت بنبرة حادة:

- إنتوا هتقعدوا تتفرجوا وتتناقشوا .. يلا قبل ما نأخد على قفانا.

فرد أحد الجالسين ولا تزال علامات الاندهاش عل وجهه:

- إستني بس لما نشوف الناس هتعمل إيه؟ ..

كانت إم قد قررت بينها وبين نفسها أن المعركة القادمة هي المعركة الحاسمة، ولا يوجد وقت للنقاش بعد الآن، فإن لم ينتفض الجميع الآن ويسقط الرئيس، سيضطرون أن يعيشوا كالعبيد، وفي صمت، لم تهتم بأراء من حولها وكانت متحفزة بشكل كبير، فلم تمانع أن تتظاهر وحدها إن أدى الأمر إلى ذلك، لن تستسلم، ولن تبيع كل من ضحي بدمائه من أجل القضية، فقالت وهي غير مستعدة للنقاش نهائياً، في نبرة حازمة:

- لو سيبنا القرارات دي تعدي .. خلاص! هتنتهي القضية! .. أنا نازلة عند القصر، مين جاي؟

فهبوا واحداً بعد الآخر واقفين بعد أن أشعرتهم إم بالخجل بسبب كلامها، وإنضموا اليها ليتجهوا إلى القصر.

كان العدد هناك بالعشرات، وفي إزدياد مستمر. على اليوم الثاني كان بالآلاف. كان لإم وأصدقائها خيمة لا يفارقوها، جالسين فيها علي الدوام، يغنون ويأكلون ويهتفون، حتى يسقط الرئيس. مرت الايام وبدأت الأعداد تنقص، والاعتصام يمتلئ باليأس. كانت إم تري أن الطريقة الوحيدة لإعادة إنعاش الاعتصام هي الاشتباكات، وكان الدم بالنسبة لها شيئاً عادياً، لا تخافه. (أعتقد أنها الوحيدة التي كانت مستعدة إستعداداً كاملاً - ممن أعرفهم - لتقيدم حياتها في مواجهة السلطة. وكان ذلك بالنسبة لى شيئاً مرعباً آنئذٍ.

يوم المعركة كانت إم جالسة في الخيمة عندما ظهرت الشرطة، علمت على الفور أن أوامر فض الاعتصام قد صدرت، فبدأت تتصل

بكل من تعرفه لكي ينضم إلى الاعتصام، حتى يتشكل عدد كبير ليتصدى للفض. كان عدد المعتصمين آنئذ ضئيل جداً، وكان سيخسر المعركة في لحظات. تم ضرب أول حفنة من قنابل الغاز المسيلة للدموع، فهرعت الناس إلى الخلف حتى لا تختنق. إستعد الجميع للمعركة، وبدأ البعض يكسر الطوب، وآخرون يقذفوه على المدرعات الواقفة. لم يمر الكثير حتى ازدادت أعداد الناس بجوار الشرطة بشكل ملحوظ، وكان معظمهم من الملتحين، فأدركت إم على الفور طبيعة المعركة، التي تهدف لإبادة الاعتصام وليس فضه، فبدأ المعتصمون في ضرب الألعاب النارية على الشرطة في المقابل، وتحولت إلى حرب شوارع، وكل بضعة ثواني ينطلق دوي الالعاب النارية من جانبهم، وأصوات إطلاق الرصاص والخرطوش من الجهة المقابلة.

كانت إم تقف في الصف الأمامي، وتحتمي بقطعة من الحديد التي وجدتها على الأرض، وكلما حدث الكر والفر بينهم وبين المؤيدين والشرطة كان الشباب يلقي القبض على بعض الناس من الإسلاميين، فتتحمس بشدة، وتطالب بضربهم، بل تعذيبهم وذبحهم في المكان، فمن الصعب أن تقنع شخصاً أن يتعامل بالرأفة مع من يحاول قتله، فالبعض كان ينادي بعدم المساس بهم، والإكتفاء باحتجازهم في الخيام، وكان افلبعض الآخر - ومنهم إم – يرون أن يعاملونهم بالمثل، فحسب منطقهم لا يوجد سبب يستوجب الرأفة مع من يفكر في قتلك أو إيذائك إذا وقعت في يده.

إعتادت إم أن تري الشباب يتساقط برصاص الشرطة من حولها، لم تعد تحزن على من يسقط بجانبها، لأنه سقط وهو يحارب من أجل الحق. فحملت بعض الشباب من حين لآخر إلى الإسعاف، أصبحت ملابسها ملطخة بدماء إخوتها، فكانت تستمر في المعركة من أجلهم.
كان هناك شاب يقف أمامها مصر أن يتعدي صف المعركة الاول، ويقف في ذلك الفراغ الذي يفصل الجبهتين، الفراغ الممتلئ بالرصاص والطوب

من الجانبين، وأخذت إم تصرخ من كل قلبها، لتحثه على الرجوع. كان الشاب يرمي الطوب على الشرطة بعزم ما فيه، و ربما لم يسمعها، فقررت ان تركض للأمام لكي تسحبه إلى الخلف، وجهزت الدرع الذي تحتمي به، ثم بدأت تركض حتى وصلت اليه، وعندما وضعت يدها على ظهره لكي تسحبه، سقط إلى الخلف عليها وهو ينزف بشدة .. تركت إم الدرع ووضعت يديها تحت إبطيه وهي تشعر بنبضات قلبه تخف، وترى الدم يتقطر من جسده، وظهر شخص آخر فحمل رجليه معها وركضوا به إلى المستشفي الميداني.

هذه المرة لم تعد إم إلى المعركة، بل ظلت واقفة بجواره وهي تتمنى أن يعود إلى الحياة. لمسها رغم إنها لم تعرفه، فهي لم تري شخص لا يخاف الموت هكذا، ولا يخاف مواجهة الحياة مثلما واجه الشرطة بصدر مكشوف.

شعرت بقيمة الحياة حقاً عندما سقط بين يديها.

الختام

وجدت جثة عادل أمامي فجأة، يلهث بأنفاسه الأخيرة، كأنه يحاول أن يقول شيئاً، لكن روحه تخونه هذه المرة. تذكرت نادية الأباصيري عندما دخلت إلى في يوم مشابه ... كان ثلاثاء أيضاً .. يا له من يوم لعين! كان قد أخذ طلقاً نارياً حياً في البطن، وظهرت علامة الخروج من الظهر. كان يفقد الدم بسيولة شديدة، فحاولت أن اربط معطفي على وسطه حتى نأخذه إلى مستشفى. لم تتوفر أي أدوات طبية في المستشفي الميداني لحالته، فكان يفقد نبضه .. وقفت أصرخ: «ما تسينيش يإبني» ثم أهز جسده بين يدي وأصرخ «سامعني». كانت شفتاه ترتجفان وكأنه يريد أن يبلغني بشئ لكن الكلام لا يخرج .. شعرت بالعجز .. نسيت كل معلوماتي عن الطب. كان يصارع الموت بقدر ما يستطيع، لكن الرصاصة كانت قد قامت بمفعولها، هكذا هي الحياة، نبنيها في أعوام لا تحصي، وتنهيها قطعة حديدية أقوي منا...

كنت أبكي وأردد كلاماً بصوت عالٍ:

ليه يا موت بس بتنقي؟

ليه يا رب بتاخد زينة الشباب؟

ليه بتاخد الورد اللي فتحته الأيام ..
وتسيبنا نتفرج؟
لا عارفين نساعدهم .. ولا عارفين نمشي معاهم
وتسيب معانا الوحوش اللي شغلتهم يقتلوا بإسمك
...
ليه؟

رفعت عيني ووجدت إم واقفة تبكي بشدة ويداها ملطخة بالدماء، التف البعض حولنا دون أن يتفوه أحدهم بكلمة، فتشت جيوب عادل، فوجدت فاتورة الصيدلية التي اشترى منها الادوية التي لم تستطع أن تسعفه، ووجدت خمسة جنيهات، ومحمول، وبطاقة شخصية .. فقط لا غير، تقريباً غادر الحياة كما دخلها، مع إضافات بسيطة.

****

منذ ذلك اليوم إنزلقت في حالة صمت .. شعرت إن الكلام لن يغير شيئاً .. كانت جثة عادل تظهر لي في كل مكان .. في الحلم وفي الواقع .. مهما هربت كانت بجانبي، فقالوا لي الكتابة خيرٌ من العلاج .. أكتب ربما تنسي جسده المخترق بالرصاص، وتبقى روحه فقط ملتصقة بروحك.

لم أعرف عادلاً قبل هذه اللحظة، ولكن عندما وضعوه أمامي شعرت أن أرواحنا تلامست .. شعرت إن الحياة تركته لتخترق جسدي .. عرفت لحظتها أن الموت يفقدنا إنسانيتنا في لحظة، ويعيدها إلينا في لحظة أخرى إن أراد وإن قبلنا.

أعتقد إن طارقاً هو من أنهى حياة عادل .. أحيانا أشعر أنني أريد أن أنهي حياته بيدي، وأنتقم لصديقي الذي عرفته وهو على مشارف الموت، لكنني لا أملك دليلاً قاطعاً .. لا أستطيع أن أجزم أنه من قتله، ولم نعد أصدقاء بالتأكيد في كل الأحوال، ومن ذلك اليوم ونحن أعداء.

كل معلوماتي عن عادل أتتني من أخيه، ومن عبد الرحمن في الأساس .. ومن التقاء أرواحنا في تلك اللحظة التي مازلت أشعر بأثرها ..

غادر عادل ليلتقي بطه صديقه الحقيقي .. وها نحن مازلنا نتساءل إذا كان الانسان ينبع من الخير أم من الشر؟

...

الكتابة خيرٌ من العلاج ..

تمت

إبراهيم باسم

أغسطس ٢٠١٣ - المعادى

"كنت أعتقد في البداية أن حالة السقوط هي الحالة الأولية لنا، بل تخيلت إننا مستقرون، لأني لم أعرف شيئاً غير السقوط، لماذا تلوموني؟ فأنا لم أر الثبات من قبل لكي أستطيع أن أميز بينهم."

مجموعة مشاهد متوازية كامنة في قلب القاهرة، تتقاطع مع الأوضاع المتقلبة: صيدلي في حالة كر وفر دائمة مع ضميره، طالبة تائهة بين حياتها الخاصة والشأن العام، ضابط شرطة يبحث عن مكانة ونفوذ وسط مجتمع متهالك، عامل يلزم الصمت ليتجنب المتاعب ويضمن إشباع عائلته، طبيب حالم يصطدم فجأة بواقع عالمنا. يتنافرون أحياناً، ويتفقون قليلاً، ليسلطون الضوء، بأفكارهم وأعمالهم، على اللغز الأبدي: لغز الطبيعة البشرية.



مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات